الشوق للقرآن

تأليف

د. عقيل بن سالم الشمري



الطبعة الأولى


الشوق للقرآن


ⓗ دار الحضارة للنشر والتوزيع، 1445هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشمري، عقيل بن سالم

الشوق للقرآن./ عقيل بن سالم الشمري ـ ط1 ـ الرياض ـ 1445هـ

232 ص؛ 24x17 سم

ردمك: 978-603-8404-90-4

رقم الإيداع: 1445/17860

رقم الإيداع: 1445/17860

ردمك: 978-603-8404-90-4

الطبعـــة الأولـــى

1445هـ ـ 2024م



المملكة العربية السعودية - الرياض

daralhadarah@hotmail.com

الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011

0551523173 @daralhadarah

زوروا متجر الحضارة

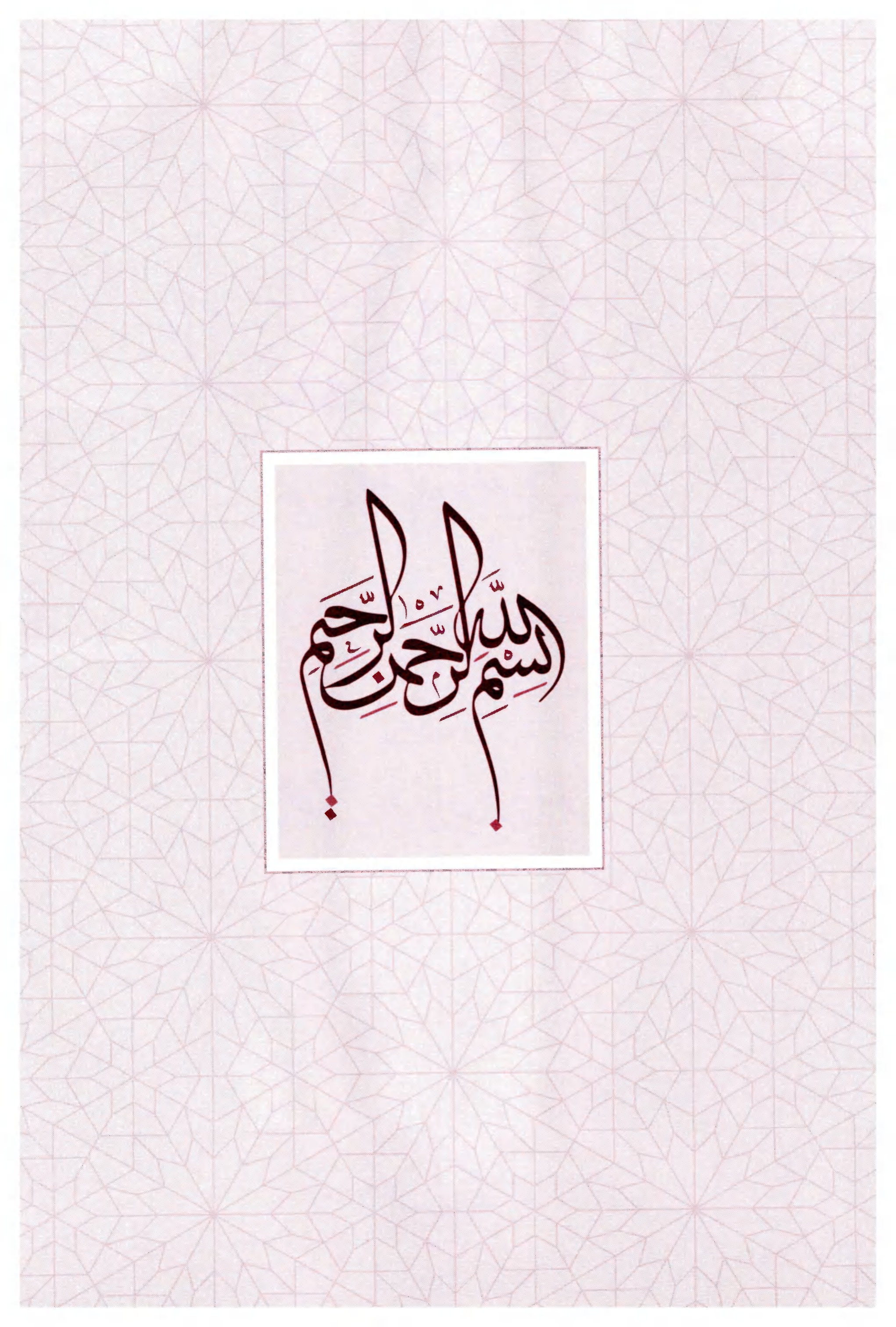
daralhadarah.net



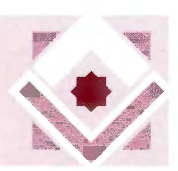
تأليف

د. عقيل بن سالم الشمري




بسم الله الرحمن الرحيم





المقدمة

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، فدلالة الآية ظاهرة في أن سماع القرآن يزيد الإيمان، فالشَّخص يجد حلاوة الإيمان في نفسه، ويجد فرقًا بين حال قلبه قبل سماع الآيات وبعدها، هذا في حال سماعه، فكيف إذا كان هو التَّالي؟! وكيف إذا كان التَّالي خاتمًا للقرآن؟! وكيف إذا كانت قراءته للقرآن عن ظهر قلب بإتقان؟! سيجد فرقًا عظيمًا في إيمانه، سيزداد هدًى، ويؤتيه الله تقواه، حتى أن ذلك يحمله على الاستعجال بالبدء بختمة جديدة، هذا وصف أولياء المتقين، وعلى هذا أذكر هذه الأسئلة:

أليس غريبًا أننا نقرأ القرآنَ ولا نجد تغيُّرًا في أفعالنا كثيرًا؟! أليس عجيبًا أن بعضنا يختم القرآن ومع هذا لا يتغيَّر سلوكه عما كان عليه قبل الختمة؟! وكم مرة قرأنا آيةً أو سورةً فعالجت سلوكًا خاطئًا عندنا؟! هل يمكن مقارنة تأثرنا ببعض مواعظ



ونصائـح الناصحين بمواعـظ القرآن؟! هل يعقـل أن هؤلاء الأشخاص أكثر بركة من القرآن؟!

وأيضًـا هـل كل ما نقرؤه نعـرف معنـاه؟! وهل قول النبي ﷺ «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ؛ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ»[1] يُراد به مجرد القراءة دون معرفة المعنى؟! حتى لو كان القارئ عربيًّا لا يعـذر بجهلـه؟! وهل كان الصَّحابـي يُردِّد آيةً فيها كلمـات لا يعـرف معناها ومع هذا يظل يردِّدها سنوات طويلـة من عمـره؟! وهل هذا يُرضـي الله؟! وأيهما الـذي نهتم به في حياتنـا المعاصرة بشـكل أكبر؛ حفظنا للقـرآن أم تدبرنا وفهمنا له؟!



وهناك سؤال آخر: أليس للقرآن قوة عظيمة جدًّا حتى أنه لو أُنزل على جبل لرأيت الجبل متشققًا خاشعًا من خشية الله وهيبة القرآن؟! فلماذا لا يحدث فينا شيئًا من الأثر ولو اقشعرار الجلد المذكور في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [الزمر: ٢٣]؟!

(١) أخرجه الترمذي، ح(٢٩١٠)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وصحَّحه الألباني في (السلسلة الصحيحة)، ح(٣٣٢٧).

أيضًا قوله ﷺ: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا»[1] مفاده أن سورًا من القرآن شيَّبتْ رأس النبيِّ ﷺ قبل وقت الشَّيب، لا أقول هنا: هل حصل لنا ولو شيء يسير من ذلك؟! بل أقول: هل تصوَّرنا معنى أنَّ سورةً قرآنيةً تُشيِّب رأس رجل؟! فشَيْبُ الرأس قبل أوانه يدلُّ على أن هناك أمرًا قد استولى على تفكيره ووجدانه ومشاعره حتى تأثرت صبغة شعره!!

وكذلك جاء في السُّنة أن النَّبي ﷺ أخذ يكرِّر آية ليلة كاملة، فقد روى النسائي عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قام بآية يكرِّرها حتى أصبح وهي قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]»[2]، فيا تُرى ماذا كان يطرأ على ذهن النبي ﷺ في كلِّ مرة يردِّدها؟! وهي آية قصيرة يستطيع تكرارها مئات المرات في تلك الليلة.. ألا يشرد ذهن القارئ الذي يكرِّر آية عشرات فضلاً عن مئات المرات؟! فكيف حافظ النبيُّ ﷺ على حضور قلبه ليلة كاملة بقراءة آية قصيرة؟!

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٧)، وقال: «حسن غريب»، وصحَّحه الألباني في السلسلة (٩٥٥).

(٢) سنن النسائي، (٢/ ١٧٧)، وحسَّنه الألباني.



وكذلك كلمة الصَّحابي الجليل جبير بن مطعم رضي الله عنه لما سمع آية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] قال: «كَادَ قَلْبِي يَطِيرُ»[1]!! وفي رواية لأحمد: «صُدِعَ قَلْبِي حِينَ سَمِعْتُ الْقُرْآنَ»[2]!! هل نسمع مثلها لهذه الآية أو لغيرها؟! ما سِرُّ افتقادنا لذلك؟! تأمَّل اللَّفظ مرة أخرى ولا تستعجل في قراءته «كَادَ قَلْبِي يَطِيرُ» أي: زاد خفقانه حتى كاد أن يخرج من حلقي، «صُدِعَ قَلْبِي» أي: انفطر وانشقَّ، والعجيب أيضًا أن هذا شعوره رضي الله عنه وهو كافرٌ حينئذٍ! فلا تسألْ بعد ذلك عما حدث لجوارحه نتيجة لما حدث في القلب، ولهذا لم يملك نفسه حتى دخل الإسلام رضي الله عنه.

وسؤال آخر: أتعلم ـ يا أخي ـ أن هذا القرآن الذي بين أيدينا هو القرآن الذي كان مع الصَّحابة رضي الله عنهم، وهو الذي صنع منهم جيلًا لا يريد إلا الله، فما الذي تغيَّر؟! لماذا لم يعد القرآن يُنتج مثل هذه النماذج؟! هل فقد مفعوله؟! حاشاه أن يكون كذلك وهو المعجزة الخالدة إلى يوم القيامة، إذن؛ فالخلل فينا نحن[3].. فالقرآن لم يتغيَّر ولكن تغيَّرت القلوبُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٦٢).

(٢) مسند أحمد، (٤/ ٨٠).

(٣) كيف ننتفع بالقرآن، ص(١٧).



وسؤال مُحرج لي أيضًا: هل كان الصَّحابي يبدأ بسورة الكهف يوم الجمعة ثم يسرح خاطره وذهنه في قضايا رزقه، وتتمثَّل له مشكلاته الأُسرية والحياتية والاقتصادية، فيسترسل بالخواطر معها، فإذا رجع له عقلُهُ وقلبُهُ وإذا هو بآخر السورة لا يعلم كيف وصل لهذا الموضع، ولا يتذكَّر أنه قرأ الآيات السَّابقة مع جزمه بأنه قرأها ولم يقفز الصفحات؟! هل ذلك يحدث للصحابة بشكل دائم؟! وهل يحدث لنا باستمرار؟! إذن؛ هناك خلل ولا بدَّ، والعجيب حقًّا أن علاج ما أهمَّه مما استحوذ في تفكيره هو في بعض الآيات التي غفل عنها أثناء قراءتها!!



ولا تنسوا الأسئلة التي تعرض على أهل العلم عن حكم جواز ترك الأجهزة تقرأ سورة البقرة هل ينفع ذلك في الرقية؟! ألا تدلُّ على أننا تعلَّقنا بأحرف القرآن والشَّكل الظَّاهري للسُّورة حتى أننا نتوقع أن أيَّ صوت للقرآن يؤدي ثمرته في بيوتنا.

وهذه أسئلة أخرى لعلها تحرِّك قلوبنا للقرآن:

كمْ مرةً قرأتَ قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ [الفلق: ٣]، وأنت لا تعرف الغاسق ولامعنى وَقَبَ؟! والعجيب أن ذلك يتكرَّر كلَّ يوم منا ولا نُريد أن نعرف معناها!!



وكمْ مرةً قرأتَ قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾ [العاديات: ١ ـ ٢] السورة الجليلة وأنتَ لا تعرف الضَّبح ولا ما بعدها؟! والعجيب أن ذلك يتكرَّر منك دائمًا كلما قرأتَ أو سمعتَ هذه السُّورة، ومع هذا لا تريد أن تعرف.

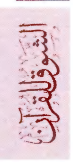
وأعجب من ذلك ألست تقرأ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢] وأنت لا تعرف معنى الصَّمد، وكيف يكون الله صمدًا؟! والعجيب أنك تقرأها كثيرًا وفي كلِّ مرة أنت لا تعرف معناها! وإذا عرفتَ معناه هل دعوت الله به؟!



هل تتوقع أن هذا السُّلوك يحبُّه الله، هل تتوقع أن الله أنزل القرآن لأجل أحرف كلمة (صمد) وغيرها، ولهذا فمتى ما قرأتها أخذت أجرًا عظيمًا ولو لم تعرف معناها؟! هل يعقل هذا؟!

ولكي ندرك حجم المأساة عندنا؛ فإنَّ سورة الإخلاص = الصمد تعدل ثلث القرآن، والسؤال هنا: ألا يدلُّ ذلك على أن في هذه السورة سرًّا لا يليق أبدًا أن يغفل عنه المؤمن؟ فلا يليق أن نغفل عن معناها وحكمها، بل ليس كثيرًا والله بعد هذا الحديث أن ينقضي عمر طويل منا في فقه هذه السُّورة.

ونلتفت للخوارج ـ أهل قراءة القرآن ـ فتبرز لنا أسئلة عديدة منها: كيف أمر النبي ﷺ بقتل مَن يقرأ القرآن ليلاً ونهارًا



وهو من الخوارج؟! كيف أُلين لهم قراءة القرآن مع ما هُمْ عليه من الضَّلال؟! لو كان مجرد القراءة يترتب عليها أجر كل حرف بعشر حسنات؛ فكم حسنة جناها الخوارج من قراءتهم للقرآن، والصحابة يحقرون قراءتهم مع قــراءة هؤلاء القوم؟! مما يدلُّ على أن مجرد القراءة قــد لا ينجيك من الضَّــلال والعذاب؛ فكيف وأنت تريد النفع مــن وراء قراءة تبدأ من الحلق وتنتهي عند الحلق؟! ولهذا قال ﷺ: «**لَا تُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ**»(١).

وكذلك ألم نحفظ فــي المدارس والجامعــات عددًا من أجزاء القــرآن وأَتْقَنَّاها واختبرنا فيها.. أيــن أثرها علينا وعلى سلوكنا وأخلاقنا وعباداتنا؟! والله المستعان.



وبهذه الأســئلة نبدأ الكتاب على بركة الله، وعلى خلاف العُرف الأكاديمي في تقســيم الأبحاث، فقد رأيت تقسيمه إلى أقسام كما يلي:

- **القسم الأول**: أزمة التعامل مع القرآن.
- **القسم الثاني**: قوة القرآن.
- **القسم الثالث**: الفرح بالقرآن.

---

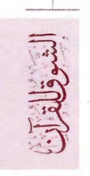
(١) أخرجه مسلم (٧٥٦٠).



- **القسم الرابع**: القرآن وحملته.
- **القسم الخامس**: الفجوة بين العلم بالقرآن والعمل به.
- **القسم السادس**: عتبات الشَّوق للقرآن.
- **القسم السابع**: تدبُّر آية خيرٌ من ختمة.







القسم الأول
أزمة التعامل مع القرآن

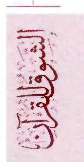


لدينا أزمة:

ورد في السُّنة النبوية أن هناك أزمة ستحدث في التعامل مع القرآن، فكان النبي ﷺ يحذِّر أصحابه من عدم فقه القرآن، ويحذِّرهم من ضرب القرآن بعضه ببعض، ويحذِّرهم من الإيمان ببعضه دون بعض، وأكثر ما حذَّرهم منه هو ألا يجاوز القرآن حناجرهم، وكان كثيرًا ما يذكر لهم حال اليهود والنصارى الذين بين أيديهم التوراة والإنجيل، فلم تكن سببًا في هدايتهم، بل ضلوا فيها وبها، حتى أن زياد بن لبيد الأنصاري رضي الله عنه لما قال للنبي ﷺ: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ، فَوَاللهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟**»[1].

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٣)، وقال: «هذا حديث غريب، ومعاوية بن صالح ثقة عند أهل الحديث، ولا نعلم أحدًا تكلَّم من غير يحيى بن سعيد القطان»، والدارمي (٢٨٨). وقال الحاكم (١/ ٩٩): «هذا إسناد صحيح من حديث البصريين»، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي.

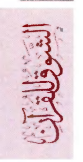


كما أخبرهم بأن القرآن سيرفع آخر الزمن، وحذَّرهم ممن يقرأ القرآن ليُقال قارئ، مما يدلُّ على أن هناك أزمة ستحدث تجاه القرآن، فكان النبي ﷺ يحذِّر منها، ويدلُّ على المنهج الصحيح قبل وقوعها، وبيَّن الصحابة الكرام رضي الله عنهم أن أول عِلْم سيرفع هو عِلْم الخشوع، وهو عِلَم القرآن الأعظم، فالخشوع أساسه القرآن، والقرآن يثمر الخشوع ولابدَّ، فإذا كان القرآن لا يثمر لك الخشوع؛ فما الذي يثمره لك؟! ومن آثار رفع الخشوع الخلل في تصور الخشوع التصور الصحيح الشرعي له، مما جعلنا نحاول أن نتَخَشَّع في جوارحنا لعلنا نحاكي ونشابه الخشوع الوارد، ولا يمكن أن يكون التقليد كالأصلي!!



وهذا جُبير بن نفير رضي الله عنه الإمام الكبير من علماء الشَّام يستغرب من حديث زياد السَّابق ويسأل عُبادة بن الصامت رضي الله عنه فقال: أَلَا تَسْمَعُ إِلَى مَا يَقُولُ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَقَالَ عُبادةُ رضي الله عنه: «صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَهَلْ تَدْرِي أَيُّ الْعِلْمِ أَوَّلُ يُرْفَعُ مِن النَّاسِ أَوَّلاً؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: الْخُشُوعُ، يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ فَلَا تَرَى فِيهِ رَجُلاً خَاشِعًا»[1].

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند)، (٢٤٠٣٦)، والترمذي في (السنن)، (٢٦٥٣)، وقال: «حسن غريب».



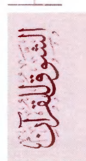
وأظنُّ أن السَّلف أدركوا بداية هذه الأزمة ولهذا ألَّفُوا كُتُبًا في أخلاق حملة القرآن، وألَّفُوا في اتبـاع العلم العمل لعلاج هذه الأزمة المهلكة، ومَن تأمَّل أحاديث رفع القرآن آخر الزمن؛ فلا بدَّ أن يستنتج أن تلك الفترة يسـبقها غفلةٌ وإهمالٌ، وهجرٌ وإعـراضٌ عن القرآن، ومعلـوم أن القرآن محفـوظ الألفاظ، فالأزمة ـ إذن ـ ستكون أزمة عملٍ بالقرآن.

ومَن تأمَّل سـيرة القرون الفاضلة فـي تعاملهم مع القرآن أدرك أن أمرين يسيران سـويًا، العناية بألفاظه ومعانيه، والعناية بالعمل به، والعناية بمعانيه والعمل به أكثر وأشد وأمتن وأدوم.



فهل يا تُرى تلك الأزمة التي حَذِر منها السَّابقون انتهت أم تفاقمت عبر السـنين؟! وإلى أيِّ مدى وصلـت؟ وهل يمكن استدراك الأمر؟! وكمْ هو الجهد المطلوب للاستدراك؟!

إنَّ مَن أراد أن يعرف ضابط قُربِهِ من القرآن، أي: هل أنت قريبٌ من القرآن أم لا؟ فليأخذ أدوات قياس السَّلف المتقدمين، ومَن قرأ سِيرهم عرف أن الأمر لا يُقاس عندهم بمقدار القراءة، أو عدد الختمات! بل عندهم أداة واحدةٌ وهي: قُربُك وصحبتُك للقرآن على قدر عملك به، فأنت صاحبُ قرآن وقريبٌ ما دمت عاملاً به.



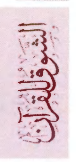
وهناك أداة قياس دقيقة أخرى، لا تخالف الأداة السـابقة وهي أن ينظر قارئ القرآن إلى مرض العصر المنتشـر، فينظر مدى تأثره بهذا المرض من عدمه، فلو كان مرض العصر التعلُّق بالدنيا مثـلاً؛ فلينظر إلى تَعلُّق قلبه في ذلـك، فيعرف هل هو صاحب قرآن أم لا؟ لأن القرآن حصن منيع عن الأمراض.

فحينما انفتح الناسُ على المال في دول الإسـلام الأولى كان أهل العلم يجعلون الزهد هو العلامة الفارقة كما قال كُرز الحارثي: «لا يكون العبـدُ قارئًا حتى يكون زاهدًا بالدرهم»[1]، وفقه هذا يرجع إلى أولويات أعمال القلوب حسـب الأزمنة، فقد تدعو الحاجـة إلى عمل قلبي أكثر مـن غيره في فترة من الفترات، ففي فترة الرِّدة زمـن أبي بكر رضي الله عنه كان العمل القلبي المقدم هو اليقين، وفي زمن عمر رضي الله عنه كان العمل القلبي المقدم هو الغيـرة لله وحده دون غيـره، وهكذا فـي كلِّ زمن يحتاج صاحب القرآن أن يكتشف العمل القلبي الذي هو أولى بالتقديم فيقدِّمه، واكتشاف هذا لن يكون إلا بالقرآن وفقهه، فما من زمن إلا ومثله وقريب منه وشـبيهه مذكورٌ في نصوص الوحي، مع ذكرٍ للمنهج الصَّحيح لعلاج ذلك. أما إنْ كان الشـخص تاليًا



---

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٨٦).

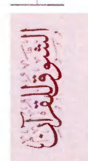


للقرآن دون معرفة لذلك، فهذا مشـــعرٌ بوجود أزمة في التعامل مع القرآن، ولو أن شخصًا يقرأ أوراقًا فيها تعاليم مرضٍ صحي والوقاية منــه وطريقة علاجه ولم يشــعر أن تلــك العلامات موجودةٌ به هو، ولم يستعمل تلك الوقاية ولا العلاج؛ فهذا أمر عظيم أعظم من مرضه المصاب به.

ونظرًا لقوة القرآن؛ فإنه يثير لدينا تأنيب ضمير أحيانًا على تقصيرنا تجــاه العمل به، فإذا رأى الشــيطان ـ وهو يجري منا مجرى الدم ـ تلك الومضة من النور؛ فإنه يبادر إلى إطفائها من خلال الأفــكار البــاردة والخواطــر اللينة التي تجعــل العبد يســتعرض حاله، فيجد أن لديه صلاة وقراءة للقرآن وشيئًا من الذِّكر وتركًا لكبائر الذنوب، فيشــعر بنوع طمأنينة يكتفي بها، ولا يعمل على اســتثمار تلك الومضة ليصحِّح سلوكه وحياته على ضوء آيات القرآن.



ومما يؤكِّد أزمة التعامل مع القرآن أننا في حال ممارســة الرقية لا نعلم أي آيات القرآن تناســب مرضنا؟ وإذا قرأنا آية الكرســي العظيمة لا نعلم طريقة ربطها بالمرض الذي نرقيه، وكيفية استحضار ذلك ليتوافق الدواء مع الداء! وإذا سمعنا عن فضل الفاتحة في الرقية؛ فإننــا لا نجد ذلك حينما نقرأها على



أمراضنا وأمراض أهلنـــا إذا رقيناهم بها، مع أن النبي ﷺ قال: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ**»[1]، وقد أبطلت الفاتحة سُـــمًّا في جسد الصحابي، وقوله: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ**» لا يُراد منه الاستفهام، إنما هي كلمـــة تُقال عنـــد التعجب، وتســـتعمل فـــي تعظيم الشَّيء[2]، ولهذا اســـتنتج بعض أهل العلم أن القرآن مع بركته فليس كله رقية، فكأن النبي ﷺ تعجب منه وسأله: كيف عرفت أنها من الآيات التي تناسب الرقية للمريض مع أني لم أخبرك بذلك؟! الآن وبعد أن أخبرنا النبي ﷺ أنهـــا رقية وصار لدينا نصٌّ نبويٌّ.. هل يحدث لدينا كما حدث لذلك اللديغ؟! مع أننا نقرأ كما قرأها الصحابي قطعًا، إذن؛ أين الخلل؟!



وهناك مشـــهد آخر يدلُّ على وجود أزمة لدينا في التعامل مع القرآن وهو مشهد الاستدلال والربط بالقرآن، فكم يحدث أمامنا حوادث، أو يطرق أسماعنا قصص لها شبيهٌ بالقرآن، أو لها علاقة بالقرآن، أو يوجد تناسب بينها وبين القرآن ومع هذا لا ندركه ولا نربط بينها وبين القرآن، فكلُّ قصة شـــاهدناها أو ســـمعناها أو جملة قرأناها؛ ففي القرآن مثلها وأحسن تفسيرًا،

---

(١) صحيح البخاري (٢٢٧٦).

(٢) فتح الباري (٤/ ٤٥٧).

فلــو كان القرآن حاضرًا فــي أذهاننا وقلوبنا لربطنا كلَّ شــيء بالقرآن فازددنا إيمانًا حين نــرى ما ذكره الله في كتابه من وعد ووعيد وقصص وأخبار ماثلة أمامنا في الحياة.

فمَن لم يعرف معاني القرآن فلا يمكنه ذلك، ولهذا يختل عنده الســلوك فيتصرَّف بناءً على هواه وليس على ما يحبه الله في ذلك الموقف المذكور مثله فــي القرآن، فكيف بما يمكره الشيطان في الإنسان وكله مذكور في القرآن، ومع هذا لا ينتبه العبد القارئ للقرآن لذلك، فيبتلى مثلاً بنجوى النفس وأحاديثها وينفتح عليه باب الوسوســة، فيدخل الخلــل لحياته كلها، ثم يســري لعبادته فتختل أيضًا، وقد يســأل عــن علاجه كل غادٍ ورائح، مع أنه يقــرأ آية النجوى في ســورة المجادلة ويتقنها: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المجادلــة: ١٠]، فذكرت الآية ســبب الوسوســة وإلــى أيِّ مــدى تؤثِّر علــى العبد؟ وما علاجها؟ فكشــفت له ســر المرض وغايتــه ونهايته، هذا والعبد غافل عن ذلك، والنجوى النفسية أحد صورها الوسوسة وليســت كل صورها، فكم من النجوى كانــت خارج النفس يلقيها عليك شــيطان الإنس تشــبه تلك النجوى النفسية التي يلقيها شــيطان الجن، فكلُّ كلام خفي يخالف اتباع الحق فهو





نجوى، فلو أن كلَّ مرض سـببه النجوى تعامـل معه قارئ القرآن على ضوء تلك الآية، فكم سيصلح من الفساد الخاص والعام؟! وفي الآية كشفٌ لطريقة من طرق كيد الشيطان ومن خلاله تكتشف طرقه الأخرى، وفيها أيضًا أن تحزين المؤمن مقصودٌ شـيطاني، وبهذا تدرك حجم الاستعاذة بالله من الهمِّ والغمِّ والحزن في السُّـنة النبوية، وتعلم أيضًا أن الشـيطان لا يدخل للعبد إلا من خلال باب فتحه العبدُ على نفسه، وإلا فليس للشيطان سـلطانٌ على المؤمن إلا بسـلطان أقامه هو على نفسه.

ومن الآية أيضًا تعلم معية الله لعبـده المؤمن ومدافعته عنـه ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا﴾، ويظهر لك اسـم الله الجبَّار والقهَّار والقوي والمتين وأشـباهها مـن خلال ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وفيها علاج التوكل النافع الشامل لكلِّ مرض نفسي اجتماعي سببه النجوى والمناجاة، والمقصود هو بيان أزمة التعامل مـع آيات نقرأها ونحتاجها وفيهـا مرضنا وعلاجنا ومع هذا نغفل عنها.

ومن أزمة التعامل أيضًا مع القـرآن ترتيبه في أولويات طلب العلم، فعنايتنا بالكتب العلمية في السلم العلمي وفقه



ألفاظ أهل العلم قد تفوق العنايـة بفقه معاني القرآن! أليس من الخلل أن يحـرص طالب العلم على حواشـي المتون وتفاصيـل دقائـق الألفاظ ولا يـوازي ذلك عنايـة بألفاظ القـرآن؟! هل هذا تـوازن صحيـح؟! ولكثرة سـوء الظن يضطرني ذلك إلى أن أُبيِّن أن كلامـي لا يعني إهمال متون أهل العلم وكتبهم؛ كيف وفيهـا كلام الله، وهي مأخوذة من كتاب الله، لكني ألوم نفسي على التقصير مع القرآن، التقصير الذي لا يوازي مكانته، مع أن لديَّ القدرة على العناية بكتب أهل العلم بشكل مُرضي.



وهـذا معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاحـب القرآن وأعـرف الناس بالحلال والحرام يقول: «**سَيَبْلَى الْقُرْآنُ فِي صُدُورِ أَقْوَامٍ، كَمَا يَبْلَى الثَّوْبُ فَيَتَهَافَتُ، يَقْرَءُونَهُ لَا يَجِدُونَ لَهُ شَـهْوَةً وَلَا لَذَّةً، يَلْبَسُـونَ جُلُودَ الضَّأْنِ عَلَـى قُلُوبِ الذِّئَـابِ، أَعْمَالُهُمْ طَمَـعٌ لَا يُخَالِطُهُ خَوْفٌ، إِنْ قَصَّرُوا قَالُوا: سَنَبْلُغُ، وَإِنْ أَسَاءُوا قَالُوا: سَيُغْفَرُ لَنَا، إِنَّا لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَـيْئًا**»[1].. فهؤلاء القوم يقرءون القرآن، فهُمْ ليسوا بمبتعدين عنه؛ فلماذا جمع معاذ بين الشهوة واللذة: «لا يجدون له شهوة ولا لذة»؟ مراده بذلك: أن ليس لهم شوق لقراءة القرآن،

(١) رواه الدارمي في سننه (٣٤٤٩).



ولهذا لا يشتهون أن يقرءوا القرآن، ولا يتلذذون حين قراءته، فلا يشتاقون قبل القراءة ولا يتلذذون حين القراءة!!

وأول الأثر بيَّن فيه معاذ رضي الله عنه السبب وهو أن الإيمان بَلَى وضعف في قلوبهم، ولم يجدِّدوه كما يجدِّدون ثيابهم، ومن أعجب ما في الأثر ـ وكله عجيب ـ تضخم الرجاء والطَّمع في قلوبهم على حساب الخوف، فلم يكن عندهم توازنٌ في أعمال القلوب، فشابهوا أهل الكتاب في قولهم: سيغفر لنا!!

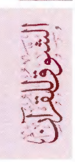
لكن لماذا شبَّه معاذ رضي الله عنه القرآن في قلوبهم بالثوب البالي؟!



إشارة إلى أن القرآن صار كالثوب البالي الذي لا يؤبه له، ولا ينظر إليه، ولا يرغب فيه(١)، أي: بمعنى زوال هيبة القرآن وتعظيمه من القلوب.

وفي الليلة التي كرَّر فيها النبي صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] كان قد حضرها صاحب القرآن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فسأل النبيَّ صلى الله عليه وسلم السُّؤال الذي كنا جميعًا سنسأله وهو: «بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، قُمْتَ اللَّيْلَةَ بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ بِهَا

(١) غربة القرآن، ص(٦٩).



تَرْكَعُ وَبِهَا تَسْـجُدُ وَبِهَا تَدْعُو، وَقَدْ عَلَّمَكَ اللهُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ، قَالَ: «إِنِّي دَعَوْتُ لِأُمَّتِي»[1]، أي أن النبي ﷺ يقرأها بنية الدُّعاء لأمته، فعلى هذا ينبغي أن نقرأ بعض الآيات على أنها دعاء، فكم من آية هي دعاء مع أنها لا تشتمل على كلمة (اللهم) أو (ربنا)، لكنه فقه القرآن الذي يميِّز بين الأخبار والدُّعاء.. فالفاتحة مثلاً يحقُّ لك أن تقرأها على أنها قرآن وعلى أنها رقية، وعلى أنها دعاء، وعلى أنها تمجيد لله وثناء عليه، وتُقرأ على أنها ولاءٌ للمؤمنين وبراءٌ من الكافرين، ولكلٍّ واحدة من هذه آية تختصها.



وحتى يكتمل فهم الموضوع فليست أزمتنا مع القرآن ـ غفر الله لنا ـ هي في العمل به وفهمه فقط، بل تمتد الأزمة لتصل إلى قراءته أيضًا، فأشد الأمراض هجر القراءة وهجر فهم المعنى وهجر العمل، وأدنى من ذلك درجات أخرى. والمهم أن نشعر بالأزمة والخطورة ثم نقبل على الله في علاجها؛ فمَن أقبل على الله شبرًا أقبل الله عليه ذراعًا.

---

(١) مسند البزار (٤٠٦٢)، وقال البزار (٩/ ٤٥١): «وَهَذَا الْكَلَامُ لاَ نَعْلَمُ أَحَدًا رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا أَبُو ذَرٍّ وَلَا نَعْلَمُ لَهُ طَرِيقًا غَيْرَ هَذَا الطَّرِيقِ، وَقُدَامَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَوَى عَنْهُ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زِيَادٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ وَغَيْرُهُمَا وَجَسْرَةُ بِنْتُ دَجَاجَةَ هَذِهِ فَلَا نَعْلَمُ حَدَّثَ عَنْهَا غَيْرُ قُدَامَةَ».



أزمة أيضًا في معاني الأذكار الشرعية:

عايش الصحابة نزول الوحي، فإذا نزلت الآيات من القرآن تخبرهم بأمر يتعلق بهم، أو بما حولهم؛ كانوا أشد فهمًا لمعانيها، فاجتمع لهم مع عربية اللسان معايشة الوحي، وبهذا تميزوا عمن جاء بعدهم، ثم جاء من بعدهم من التابعين ففهموا الوحي من خلال معايشتهم للصحابة رضي الله عنهم ومن خلال لسانهم العربي الفصيح، وهكذا شيئًا فشيئًا بدأت الأجيال تفقد أمرًا من الأمور التي تساعدهم على فهم الوحي، حتى جاء زماننا المعاصر ففقدنا كثيرًا من الألفاظ العربية الأصيلة، وأصبح استعمالنا لها قليلًا، حتى أن بعض الألفاظ اندثر وانتهى لفظنا بها إلا في محيط عبادتنا، فكلمة (سبحان) لا نستعملها في حياتنا اليومية إلا مقرونة بلفظ الجلالة، ولهذا فلن يكون استحضارنا لمعنى (سبحان الله) مثل استحضارنا لكلمة (الثناء لله)، لأننا نستعمل كلمة الثناء في حياتنا اليومية كثيرًا ففهمنا معناها واستعملناها. ولاشك أن النطق بكلمة سبحان الله مع معرفة معناها واستحضارها وفقهها وانعكاس أثر ذلك على إيماننا وقلوبنا هو المقصود من قول تلك الجملة العظيمة (سبحان الله).



إننا نعيش أزمة في فقه معاني الألفا الشرعية، ولتزداد يقينًا بذلك، اســأل ابناءك وأهلك وأحبابك هل نحن نستعمل كلمة إله وتألَّه ومألوه في حياتنا اليومية؟! هــل مرَّ عليكم من يقول لابنه: تألَّه؟! فإذا لم تكن مستعملة في حياتنا اليومية فلن يكون استحضارنا لمعناها مثل كلمة أخرى نحن نستعملها يوميًا. فإذا قال المؤمن: لا إله إلا الله، وكررها، هل ســيكون بهذا التكرار مستحضرًا معناها ويتجدد له من الإيمان بقدر تكراره لها، حتى أنه يجد الفرق في قلبه ونفسه بين حاله قبل أن يقولها وبعد أن قالهــا؟!. إن كلمــة الإله تعنــي المحبوب المطــاع، فإذا قال المؤمن: لا إله إلا الله، هو يقول: لا محبوبَ مطاعٌ عندي إلا الله وحده لا شــريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير، فإن كرر هذه الكلمة بفهم المحبة والطاعة، واســتعرض أفعاله وأقواله في ذهنــه أورثه ذلك خضوعًا وانكســارًا لربه، وإنابةً ورجوعًــا له، وهذا هــو معنى لا معبود بحــقٍ إلا الله، فالمعبود هو المحبوب المطاع.

ولأزيدك أمثلة على حاجتنا لمراجعة فقه الأذكار الشرعية، فهناك ذكر شرعي منقسم إلى جملتين، يختلف فقهنا لمعناهما، ونجد الفرق في أنفسنا، فإذا قلنا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإننا نجد من أنفسنا أننا ندرك معنى القوة ونستحضرها، بينما إدراكنا



لمعنى الحول هو أقــل من ذلك الإدراك، وقــد نجعله رديف القوة، غير أن الحول هو التحول من الحال التي عليها العبد إلى حالٍ أخرى، فالعبد المؤمن يتبرأ مــن تحوله إلى حال أخرى، ويظهر لســيده بأنه لا حيلة له في ذلك، ثم يتبرأ من قوته على هذا التحول مع أنه يريده ويسعى إليه إلا بإعانة الله.

وأختم بالصلاة علــى النبي ﷺ فنحن نطلــب من الله أن يصلــي على نبيه ﷺ فمــا معنى ذلك؟ وهــل الله يصلي حتى نطلب منه ذلك لنبينا محمد ﷺ؟



ومن هنا فرّق ابن القيم بين صــلاة العلماء وصلاة غيرهم فقال: «ولهــذا كانت صلاة أهل العلم العارفين بســنته وهديه المتبعين له على خلاف صلاة العــوام عليه الذين حظهم منها إزعاج أعضائهم بها رفع أصواتهم»[1].

أرأيت حظهم إزعاج أعضائهــم؛ لأنهم لا يعرفون معناها، وبالتالي لا يستشــعرون أمرًا قلبيًا يمر على قولهم أثناء الصلاة والســلام على النبي ﷺ، وهذا هو أحد الأســباب وراء برود الشــعور تجاه الصلاة على النبي ﷺ ولا نزداد حماسًا للصلاة عليه إلا حينما نعلم أن الصلاة عليه أحد أسباب زيادة الرزق.

(١) جلاء الأفهام، ص٤٥٢.



إن تكرار الصلاة والسلام على النبي ﷺ لا يقصد منه العدد في الشـــريعة، ولو كان ذلك مقصودًا لكان أحظ الناس به أقواهم حنجرةً وأطولهم صوتًا! حتى الحســـنات التـــي تأتي من وراء صلاة وســـلام على النبي ﷺ لا يُفهم معناها إنما هي حسنات خفيفة فـــي الميزان، لأن الأعمـــال توزن كما يـــوزن صاحب العمل، فكما أن الرجل الســـمين لا يزن جناح بعوضة فكذلك بعض العمل الكثير وهو خواء من داخله، قد يؤجر صاحبه على الاجتهاد ونية الخير لكن وزن العمل نفسه فليس كذلك.



إن حرص الشـــرعية على كثرة الصلاة والسلام عليه ليثمر زيادة الشوق والمحبة له، ولنعتاض عن نقص رؤيتنا له بكمال شـــوق قلوبنا إليه، مما يحملنا على كمال الاقتداء به والاهتداء بهديه.

إن الصلاة على النبي ﷺ: تعني أننا نطلب من الله أن يثني على نبيه بين ملائكته في الملأ الأعلى، فنحن نعترف أمام ربنا بأننا عاجزون عن الثناء على هذا الرجل الذي كنا جُهالًا فهدانا الله به، وكنا ضُلَّالاً فهدنا الله به، صبر حتى نشـــر الدين، وقد أُوذي وفُتن وابتلي وطُرد، مات أمامـــه جده وأعمامه وزوجته وأكثر بناته، وأما أصحابه وأحبابـــه ففي كل معركة يفقد عزيزًا



محبًا، فقابل الابتلاءات بالصبـــر والحلم وكمال التعبد لله، لم يمت إلا وقد علمنا عـــن كل حكم كل شـــيءٍ، ودلَّنا وعرَّفنا وأوصلنـــا لله، وطمأننـــا أنه ينتظرنـــا على الحوض، وبشـــرنا بشفاعته، فمثل هذا لن نعطيه قدره بثنائنا عليه، ولو سخرنا كل ألفاظنا ومدائحنا، فلا يليق بنا والحالة هذه إلا أن نستفزع بربنا ونطلب منه أن يثني على نبينا الكريم بين الملائكة، وأن يباهي به، وإذا أثنى الله على أمرٍ فقد كتب لـــه البقاء، فبثناء الله على نبيه الكريم سيُبقي دينه وشـــرعه في الأرض، واللوازم من ثناء الله على كثيـــرة جليلة، يتفكر فيها المؤمـــن وهو يكرر الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ[1].



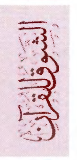
إن المقصود أن ندرك إلـــى أي مدى وصلنا من الخلل في فقه الأذكار الشرعية، مما يحتم علينا علاج ذلك.

أثر الحياة المادية على قراءتنا للقرآن:

نحن أبناء بيئتنا المعاصـــرة، والتي طغت فيها الماديات والحســـابات ولُغة الأرقام؛ فأثَّر ذلك على بعض تصوراتنا عن العبودية، فالبعض يظن أن كلَّ حرف من القرآن بعشـــر

---

(١) يمكن مراجعة الفضائل من كتاب جلاء الأفهام لابن القيم.



حســنات هو قانون عام ينطبق على كلِّ مَن أتى بأيِّ حرفٍ من القرآن، كما يتعامل مع ماديات العصر الحالي، ولو كان بهذا الأمر لكانت آية الدَّين أكثر أجرًا من سورة الإخلاص! التي تعدل ثلــث القرآن، وبهــذا المنطق ســيكون قولك: (سبحان الله وبحمده) مائة مرة أفضل بكثير من قراءة سورة الإخــلاص؛ لأن الأولى تغفــر ذنوبه وإنْ كانــت مثل زبد البحر، بينما سورة الإخلاص ســبعة وأربعون حرفًا، وكلُّ حرف بعشر حســنات فمجموعها أربعمائة وسبعون حسنة! فأين هذا الرقم من زبد البحر؟!



هذا كلُّه تفكير مَن لم يفهم المراد من كون الإخلاص ثلث القرآن، ويتعامل مع الأحرف دون المعانــي، وهذا غير مرادٍ لله حين رغَّبنا بعشــرات الحســنات إنْ قرأنا القــرآن، ولم يقصده النبي ﷺ أبدًا حين حثَّ الصحابة رضي الله عنهم على قراءة القرآن ومنعهم من كتابة السُّنة النبوية أول الإسلام، ولم يطرأ هذا التفكير على علمائنا الكِرام حين فاضلوا بين ســرعة ختم القرآن في رمضان وبين قــراءة التأمــل والتدبُّر، إنهــم جميعًا لم يقصــدوا قراءة الأحــرف، بحيث تمــر عليك الكلمــات تلو الكلمــات وأنت لا تعرف معناها، ولم يحفزك جهلك على طلب معناها، ولا تريد ذلك، بدليل قراءتــك المتواصلة وجهلك المعنى طوال ســنين



عمرك، وهذا التفكير أحد نتائج أزمة الأمة حين انفك الظاهر عن الباطن عندهـــا، فأَوْلَت الشَّـــكل الخارجي الاهتمـــام أكثر من المضمر الباطني القلبي، وما تبع ذلك من انحراف في مســـمى أعمال القلوب حتى وصل الأمر إخراجها من مسمى الإيمان.

إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكيم فـــي ترغيبه المؤمن بالحســـنات إنْ قرأ القرآن؛ لأنه يريد من عبده ألا يفارق القرآن قراءةً وتأملاً وتدبرًا وعلمًا وعملاً، فإنْ أحس بفتورٍ أو ضعفٍ؛ فليتذكر الحســـنات العظيمات، فلعل نفســـه تتشـــجع للقـــراءة والرجـــوع للقرآن والارتباط به. ومثال ذلك: الأب الـــذي يرصد مكافأة لابنه إنْ استمر في المذاكرة عدة ساعات، هو بالتأكيد لا يقصد مِن وراء ذلك مجرد جلوســـه على المكتب والنظر في الكُتب دون فهم ما تحتويه، بل هدفه تشـــجيع ابنه على المذاكرة بذهن حاضر ليتحقق له النجاح(١).

غنيٌّ عن القول بأني لا أقصد التزهيد بجانب طلب الثواب في قراءة القرآن إلا أني أشـــير إلى الأجر العظيم والعظيم جدًّا المترتب على تدبُّر وفقـــه وفهم الآيات والعمـــل بها أكثر من الثواب المترتب على مجرد قراءة الحروف دون فهم المعاني.

---

(١) كيف ننتفع بالقرآن، ص(٧).





القسم الثاني
قوة القرآن

قوة القرآن:

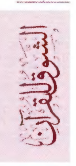
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قوي، ومن أسمائه القوي، ومن صفاته القوة، وكلامه قوي وجمع القوة من كلِّ أقطارها، وقد أظهر الله لنا مثلاً حسيًّا للقرآن، وأتى به من واقعنا لندركه ونفقهه، فأعظم ما في الوجود هو الجبل، فلو أُنزل عليه القرآن لتصدَّع لدرجة أنك ترى التصدُّع رؤية عينيةً كما قال: ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ أي: بعينك، والإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] قال: «وَلَوْلَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى حَمْلِهِ مَا جَعَلَهُ، لِيَتَدَبَّرُوهُ وَلِيَعْتَبِرُوا بِهِ، وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته، يَقُولُ تَعَالَى جَدُّهُ وَقَوْلُهُ الْحَقُّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، فأين قوت الْقُلُوبِ مِنْ قُوَّةِ الْجِبَالِ! وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى رَزَقَ عِبَادَهُ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى حَمْلِهِ مَا شَاءَ أَنْ يَرْزُقَهُمْ، فَضْلاً مِنْهُ وَرَحْمَةً»[1].

(١) تفسير القرطبي (١/ ٤).



ومن قوة القرآن أنه يدخل إلى منطقة لا يستطيع أحدٌ الوصول لها، وهي منطقة الإيمان داخل القلوب، فالقرآن يدخل مباشرةً ويتسلَّل لتلك المنطقة ويحرِّكها فيزيدها إيمانًا، كما قال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقصة الرجل العاتي الجبار العنيد الوليد بن المغيرة والذي ما تغيَّر وجهه مثل تغيُّره حينما تليت عليهم آيات الله من فم النبي ﷺ.. إنَّ بعض قلوب الرجال أقوى من الجبال، فإذا خالطها عناد واستكبار زادت قوتها، ومع هذا يزعزعها آيات تتلى، إنَّ قوة القرآن من آثار قوة الله المتكلم به.

وهذا أحد الأسرار التي جعلت الصحابي يتغيَّر خلال لحظات بعد إسلامه وتلاوته لآيات أو سماعه لها، فيغير تصوراته وعقائده وعاداته التي ورثها عن آبائه، والأعجب أنه يقطع متعلقات قلبه وما هو معتاد عليه، هذا كله يحدث في لحظات ويستمر مع الأيام زيادة، فتُنتزع عوائد الجاهلية من قلبه وسلوكه، وتغرس بدلها أشجار الإيمان التي تؤتي أكلها بعد حين بإذن ربها، ومن القوة أن تلك الآيات تغزو صفات النفس من الجشع والطمع والعلو والفخر فتغيرها في لحظات، ويضع مكانها التواضع والإخبات والافتقار، فمَن يقوى على تغيير النفس؟! أليست هذه هي القوة العظمى؟! هذه قوة القرآن!!



إنَّ الصحابة رضي الله عنهم حينما خرجوا خارج ديارهم لنشر الإسلام كانت رؤيتهم وسـماع كلامهم تشـهد لكلِّ مَن شاهدهم أنهم ربانيون وعُبَّاد ومن أهل الآخرة، أو من اتباع الأنبياء السابقين، بل كان النصارى إذا شاهدوهم قالوا: الآن عرفنا هيئة حواريي المسيح الذين كنا نقرأ صفاتهم في كتبنا، فقد تأثرت أشكالهم الخارجية بصبغة الإيمان والخشوع، فرؤية العُبَّاد تُذَكِّر بالله ربِّ العالمين، وكما أن الله من أسمائه المبين، فتظهر آثار هذا الاسم على أوليائه، فهُـمْ واضحون بيِّنون لا يخفـون، وهذا من قوة القرآن أن يغيِّر باطن الإنسان وظاهره.



ولقـوة تغيير القـرآن لأصحابه كان من دعـاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلِ الْقُرْآنَ رَبِيـعَ قُلُوبِنا**»، فاختيار لفظ الربيع مقصود التأمل به.. «فالربيع هو المطر الذي ينزل من السَّـماء فينبت به النباتُ، قال النبي ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا يُنْبِـتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ**»، والفصل الذي ينزل فيه أول المطر تسمِّيه العربُ الربيعَ؛ لنـزول المطر الذي ينبـت الربيعُ فيه، وغيرهم يسـمِّي الربيعَ الفصلَ الذي يلي الشِّتاءَ؛ فإنَّ فيه تخرجُ الأزهارُ التي تُخلقُ منها الثمارُ وتنبتُ الأوراقُ على الأشـجار، والقلبُ الحيُّ المنوَّرُ؛ فَإِنَّهُ لِمَا فِيهِ مِنْ النُّورِ يَسْمَعُ وَيُبْصِرُ وَيَعْقِلُ، وَالْقَلْبُ الْمَيِّتُ؛ فَإِنَّهُ



لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ»[1].. فكلمة الرَّبيع تدلُّ على أن القرآن يراد منه التَّغيير حتى تنبت أزهاره، أي أن القلب لا يبقى على حاله.

ومن قوة القرآن أن السُّورة الواحدة تكفي للعمل إذا فهمت معانيها، وهذا من إعجاز القرآن، ولهذا قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «كُنَّا صَدْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْ خِيَارِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا مَعَهُ إِلَّا السُّورَةُ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ شِبْهُ ذَلِكَ، وَكَانَ الْقُرْآنُ ثَقِيلاً عَلَيْهِمْ وَرُزِقُوا الْعَمَلَ بِهِ، وَإِنَّ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يُخَفَّفُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ حَتَّى يَقْرَأَهُ الصَّبِيُّ وَالْأَعْجَمِيُّ فَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ»[2].



فالسُّؤال كيف لهذه السُّورة الواحدة أن غيَّرت هذا الرجل، فصار من خيار الصَّحابة؟! فهذا من قوة القرآن!!

وقد التفت الحسن البصري رحمه الله إلى أمرٍ يحفِّز على تعلُّم القرآن فقال: «واللهِ ما أنزل اللهُ آيةً إلا أحبَّ أن يُعلمَ فيمَ أُنزلت وماذا عُني بها؟»[3].

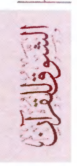
وبعد بيان أوجه قوة القرآن نقول: إنْ لم يُحدث القرآن بك تغيُّرًا؛ فاعلمْ أن بينك وبينه حجاب!! وهذا ما ذكره الله سبحانه وتعالى عمن

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٠٣).

(٢) أخلاق حملة القرآن، ص(٣٧).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٩٧)، والدر المنثور، (٢/ ٦٩).



لم يتأثروا بالقرآن فقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [الأنعام: ٢٥]، والأكنة هي الأغطيـــة، وهُمْ قد اعترفوا بذلك فقالوا: ﴿ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت: ٥].

ومن رحمـــة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن رَبط على قلـــوب المؤمنين وإلا فإنَّ الوعد والوعيد في القرآن لا تحتملــه القلوب الحية، فمَن يتَحَمَّل ما ذكره الله عن غضبه وعذابه وسخطه، فمَن يقوم لغضب الله، وإنْ تكلَّم الله عن الجنة ونعيمها ورضاه فمَن يتَحَمَّل شوقه لها، وطيران قلبه لها، كما قال الدَّاراني: «رُبَّمَا أَقَمْـــتُ فِي الْآيَةِ الْوَاحِدَةَ خَمْسَ لَيَالٍ، وَلَوْلَا أَنِّي بَعْدُ أَدَعُ الْفِكْرَ فِيهَـــا مَا جُزْتُهَا أَبَدًا، وَرُبَّمَا جَاءَتِ الْآيَةُ مِنَ الْقُرْآنِ تُطِيرُ الْعَقْلَ؛ فَسُبْحَانَ الَّذِي رَدَّهُ إِلَيْهِمْ بَعْدُ»[1].



فالاطمئنان أثناء قراءة الآيات القرآنية ناتجٌ عن أحد أمرين: إما تثبيت من الله، أو غفلة في قلوبنا عن معاني القرآن.. فأيُّهما أقرب لحالنا؟!

إنَّ ما يذكره أهل العلم من مقدمات قراءة القرآن كما ذكره الآجريُّ: «بَابُ أَدَبِ الْقُرَّاءِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِـــمُ الْقُرْآنَ مِمَّا لَا يَنْبَغِي لَهُمْ جَهْلُـــهُ»[2]، وما ذكره النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فـــي (التبيان في آداب

---

(١) تهذيب الحلية، (٣/ ١٨٥).

(٢) أخلاق أهل القرآن، ص(١٤٥).



حملة القــرآن) مثل: اســتعمال الســواك عند قــراءة القرآن، واســتحباب الوضــوء، وانتقاء أماكن قــراءة القــرآن، وكيفية الجلوس عند قراءة القرآن، واســتعاذة والبســملة، والأوقات المختارة للقراءة وغير ذلك.. كلُّ ذلك هو تهيئة للدخول على القرآن، وبيــان من أهل العلــم إلى أن الدخــول للقرآن ليس كالدخول لغيره مــن الكتب، فتتهيَّأ للدخــول للقرآن كما تتهيَّأ للدخول على ذي شأن مهيب جليل، فإذا انصبغ القلبُ بتعظيم القرآن عند ذلــك قرأ القرآن علــى كلِّ أحوالــه كما هو حال المصطفى ﷺ؛ فقد كان يقرأ وهو في حجْرِ عَائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[1].

ومن قوة القرآن عند الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الأثر الذي أخرجه الإمام مســلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّــا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قَالَ: فَاشْــتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُــولِ اللهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُــولَ اللهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُــولَ اللهِ، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدِ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ

(١) صحيح مسلم، (٣٠٢).



هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ»[1].

ركِّز في آخر جملة في الحديث (**ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ**) ما معناها؟ هل المعنى عرفوا قراءتها؟ هل يعقل أنهم لم يعرفوا نطقها ثم عرفوا؟ كلا، بل المعنى أعجب من ذلك: فهُمْ لم يستطعوا أن ينطقوا بها؛ لصعوبة معناها على أنفسهم، فأصواتهم ترتعد وألسنتهم تمتنع لقوة معناها وشدته، كما لو تقرأ خطابًا في قتلك وهلاكك! ولهذا بركوا على الركب وهم الرجل الأقوياء والأشداء، لكن جاءهم ما هو أقوى منهم وأشد، كلام الله، فلما أذعنوا وانقادوا وقالوا: سمعنا وأطعنا كان الجزاء أن أنزل الله الآية بعدها التي فيها المغفرة والعفو والنصرة على الكافرين.

كمْ قرأنا هذه الآية ولم يأتنا ولا عشر المعشار من هذا الشعور، فلماذا يا ترى؟! لأننا لم نفهم معناها ولم نعلم أنه

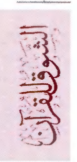
---

(١) المصدر السابق، (١٢٥).



هلاك لنا؛ وهم رضي الله عنهم فهمـوا معناها وأيقنوا بـه، وعرفوا عظمة قائله وصدقه، فخُذْ الآن معنى الآية: أي أن الله سيحاسبنا عما أعلناه وأظهرناه من أعمالنا، وسيحاسـبنا علـى ما نخفي في أنفسنا مما سـترناه عن الناس!! وهذا ما لا طاقة لنا به، ولهذا برك الصحابة على الركب من هوله، فمن يقدر على أن يحاسبه الله على ما يخطر في باله مما يخفيه عن الناس، فماذا يوجد في خواطرنـا ونياتنـا وما هممنا بـه وما عزمنا عليـه؛ كلُّ ذلك سيحاسبنا الله عليه، وهذا شأنه عظيم كبير، فكان المفترض على الصَّحابة رضي الله عنهم أن يقولوا: سـمعًا وطاعةً لربنـا غفرانك لذنوبنا وسـترك علينا وإليك المصير والمرجـع والمآب، فنحن إليك صائرون، وأنت قادرٌ علينا، لكن غلبهم الخوف من الله، فقالوا عند ذلك: كلفنا من الأعمال الصالحة ما نطيقه ونجاهد أنفسنا عليه، أما المحاسـبة على ما نخفيه فهذا ليـس عليه به صبر، ولا نقوى عليه، وطلبوا من النبـي صلى الله عليه وسلم وهو الرحيم بهم وبأمته أن يسـمع منهم قولهم؛ حيث ثقلت ألسـنتهم عن النطق بهذه الآية الكريمـة مع محبتهـم لـكلام الله، لكن لشـدتها على أحوالهم، فاستغل النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث ليزيل أيَّ تشابه بينهم وبين بني إسرائيل ولو كان التشابه غير مقصود، فقال: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ



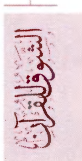


قُولُوا: سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»، فاستجاب الصحابة ﵃ لذلـك وقالوا: سـمعنا وأطعنا، ويفعـل الله بنا ما يشاء، فنحن في دار امتحان وابتلاء، وكما أعاننا على تكاليف الشريعة سـيعيننا ربنا، فتحقَّق لهم عبوديات قلبية عظيمة منها: التسـليم والإذعان والانقيـاد مهما كان الأمـر، وهذا مقتضى العبودية التامة، ألا يجادل العبد ولا يتردد في التنفيذ، وسيجعل الله بعد عسرٍ يسرًا، فعفَا اللهُ ﷻ عنا وعنهم ونسخها بقوله: ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ** ﴾ [البقـرة: ٢٨٦].. فتخيَّلوا لو لم يجثُ الصحابة ﵃ على الركب، تخيَّلوا لـو لم يرَ الله وهـو العليم هذا الخوف الشـديد الذي رحمهم بـه ورحمنا معهم بـه، فلله الحمد ولـه الفضل على رحمته بعباده.

ومن قوة القـرآن أنه يقدر على إذابة الهـم والحزن والغمِّ المتغلغل في النفوس، ففي الحديث: «**أَنْ تَجْعَـلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَـدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَـابَ هَمِّي**»(١)، وابن القيم ﵀ يعلِّق على هذا الحديث فيقـول: «وَلما كَانَ الصَّدْر

---

(١) أخرجه أحمد، (٤٣١٨)، والحاكم، (١٨٧٧)، وقال: «صحيح على شرط مسلم».



أوسع من الْقلب كَانَ النُّور الْحَاصِل لَهُ يسري مِنْهُ إِلَى الْقلب؛ لِأَنَّهُ قد حصل لما هُوَ أوسع مِنْهُ، وَلما كَانَت حَيَاة الْبدن والجوارح كلهَا بحياة الْقلب تسري الْحَيَاة مِنْهُ إِلَى الصَّدْر ثمَّ إِلَى الْجَوَارِح سَأَلَ الْحَيَاة لَهُ بِالربيعِ الَّذِي هُوَ مادّتها، وَلما كَانَ الْحزن والهم وَالْغَم يضاد حَيَاة الْقلب واستنارته سَأَلَ أَن يكون ذهابها بِالْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهَا أَحْرَى أَلا تعود، وَأما إِذا ذهبت بِغَيْر الْقُرْآن من صِحَة أَو دنيا أَو جاه أَو زَوْجَة أَو ولد؛ فَإِنَّهَا تعود بذهاب ذَلِك وَالْمَكْرُوه الْوَارِد على الْقلب إِنْ كَانَ من أَمر مَاضٍ أحدث الْحزن، وإِنْ كَانَ من مُسْتَقْبلٍ أحدث الْهم، وَإِنْ كَانَ من أَمر حَاضرٍ أحدث الْغم»(١).

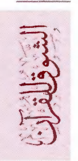


ومن قوة القرآن أنه يُكتفى به مع السُّنة في تحصيل العلم كلِّه، وهو ما فعله ابن مسعود رضي الله عنه، فقد أخبر عنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: «قَرَأَ الْقُرْآنَ ثُمَّ وَقَفَ عِنْدَهُ، وَكَفَى بِهِ»(٢)، ومعنى وصف عليٍّ رضي الله عنه أن ابن مسعود رضي الله عنه اكتفى بعلم القرآن وما فيه، وعمل على تثوير معاني القرآن فاكتفى بذلك وأصبح عالم الصحابة، ونفع الله به الأمة كلها.

---

(١) الفوائد، ص(٢٦).

(٢) أخرجه الحاكم، (٣/ ٣١٨)، وصحَّحه ووافقه الذهبي.



القرآن سببٌ لحفظ الكون كلِّه:

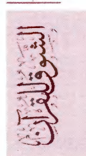
إذا ذهب القرآن من الأرض ذهبت بركة الأرض كلها، وآذنت الحياة بالزوال، فالمؤمن وذكر الله هو بركة هذه الأرض، والدنيا كلها ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، ولو يعلم المخالفون للقرآن، المبتغون إزالته ـ لو يعلمون أنهم بأفعالهم هذه يضرون الأرض كلَّها، فإنَّ القرآن إذا رُفِعَ قامت الساعة، وقد أخرج الدَّارميُّ عدة آثار عن ابن مسعود رضي الله عنه ـ وهو من أصحاب القرآن ـ قوله: «أَكْثِرُوا تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ, قَالُوا: هَذِهِ الْمَصَاحِفُ تُرْفَعُ, فَكَيْفَ بِمَا فِي صُدُورِ الرِّجَالِ؟ قَالَ: يُسْرَى عَلَيْهِ لَيْلاً فَيُصْبِحُونَ مِنْهُ فُقَرَاءَ، وَيَنْسَوْنَ قَوْلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ, وَيَقَعُونَ فِي قَوْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَشْعَارِهِمْ, وَذَلِكَ حِينَ يَقَعُ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ»[(١)].

ورفع المصاحف يتوافق مع هدم الكعبة[(٢)]، وبزوالها تزول شعائرها من الهدي والشَّهر الحرام الذي هو قيامٌ للناس المذكور في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا

(١) سنن الدارمي، (٣٦٦١)، وانظر تخريجه مطولًا في النسخة المحققة بإشراف الدكتور سعد الحميد (٢/ ٣٣٥)، وقال فيه: «فالحديث صحيح لغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه».

(٢) أخرجه مسلم، (٢٩٠٩).





﴿لِلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٣٧]، ثم تأتي الريح التي تقبـض أرواح المؤمنيـن[1]، وبعدها بقليل تـزول الدُّنيا وتطلع الشمس من مغربها؛ فهل يا تُرى أن رفع المصاحف يتم فجأةً؟ بينما الناس حافظون قارئـون عاملون وإذ بالمصاحف تُرفع؟! ليس كذلك، بل يسبق رفع الآيات من المصاحف رفعه من الصدور، ويسـبقه رفعه من واقع الحياة، فلا يعمل الناس بالقرآن، فحقيقة الرَّفع حدثت حينما تُرك العمل بالقرآن ولكن الناس لا يشعرون؛ لأن مقاييسـهم هي المقاييس الحسية التي يشاهدونها ويرونها، فالجيل الذي ترك العمل بالقرآن هو الجيل الممهد للجيل الذي ترفع فيه المصاحف، وهذا من عزة القرآن؛ فالقـرآن لا يبقى في أرض لا يعمل فيهـا ويهمل ويترك، وهو كذلك يفعل مع الصدور التي لا تعمل به، فسرعان ما يغادرها ويتركها، نسأل الله لطفه بنا.

وقول ابن مسـعود رضي الله عنه: «فيصبحون منه فقراء» إشارة منه إلى أن ترك القرآن هو الفقر الحقيقي والذي لا نسبة بينه وبين فقر المال، لكننا لا ندرك ذلك لتعلقنا بالمحسوسات، وإلا فأيُّ فقر أعظم من فقر قلب لا توجد فيه آية؟!

---

(١) أخرجه مسلم، (٢٩٣٧).



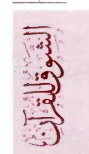


وهنا قضية غريبة تؤخذ من كلام ابن مسعود ﷺ: ألم يكن ابن مسعود ﷺ يعلم أن هذا سيحدث آخر الزمان؟ إذن؛ لماذا يشغل الناس بأمر سيحدث في مستقبل الأيام؟ لماذا يفسد على الناس فرحتهم وقراءتهم للقرآن؟!

والجواب يؤخذ من شخصية ابن مسعود ﷺ نفسه؛ فهو من أهل القرآن وبينه وبين القرآن صحبه ويعرف القرآن جيدًا، يعرف أن وقت رفع المصاحف يسبقه خطوات شيطانية وهي: هجر قراءته، ثم هجر معانيه، ثم هجر العمل به، ولهذا أوصى بكثرة التلاوة التي تصدُّ الخطوة الشيطانية الأولى، وأوصاهم بالقراءة ولم يوصهم بالمعنى؛ لأن الناس متوافرون على فهم المعنى في ذلك الوقت، كما أن علم الخشوع والذي هو أساس القرآن رفع أول الزمن، فحذَّرهم الصحابة ﷺ من ذلك.



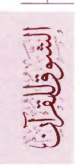
وما قرَّره ابن مسعود ﷺ يقرِّره غيره، فقال عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرو بْنِ الْعَاصِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَرْجِعَ الْقُرْآنُ مِنْ حَيْثُ نَزَلَ، لَهُ دَوِيٌّ حَوْلَ الْعَرْشِ كَدَوِيِّ النَّحْلِ يَقُولُ أُتْلَى وَلَا يُعْمَلُ بِي»، ونلاحظ أن قراءته لم تهجر، والقرآن يعترف بذلك، إلا أن المهجور هو العمل به المبني على فقهه ومعرفة معانيه وتدبره.



وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَمْ يَبْعَثِ اللهُ رَسُولاً إِلَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا، فَإِنْ قَبِلَهُ قَوْمُهُ وَإِلَّا رُفِعَ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف: ٥] لَا تَقْبَلُونَهُ فَنُلْقِيهِ عَلَى قُلُوبٍ بَقِيَّةٍ، قَالُوا: قَبِلْنَاهُ رَبَّنَا، قَبِلْنَاهُ رَبَّنَا، وَلَوْ لَمْ يَفْعَلُوا لَرُفِعَ وَلَمْ يَنْزِلْ مِنْهُ شَيْءٌ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ».









القسم الثالث

الفرح بالقرآن

الفرح بالقرآن:

جاءت صيغة الحصر في قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، لتحصر لنا ما يُفرح به، فتمام الحب لله أن تفرح بما فرح بـه مولاك، والآية أمرتنا بالفرح بفضل الله ورحمته، وأهل العلم وإنْ اختلفوا في تحديد المقصود بفضـل الله ورحمته، إلا أن أحدهما هـو القرآن[1]، فالقرآن أعظم ما يفرح به، ولو تحقَّق الإيمان في قلوبنا لم نفرح بشيءٍ غير القرآن، وما من شيءٍ يستحقُّ الفرح إلا وفي القرآن أمثاله ومثله معه، بل لا مقارنة بينهما.



ويفهم من الآية: أن غير فضل الله ورحمته القرآن لا يستحق الفرح، وهذا يجعلنا نُغَيِّر تصورنا عن الفرح، فليس كلُّ ما يُفرح النفس يكون فرحًا صحيحًا ولو سُمِّي فرحًا، إنَّ الشريعة تحدِّد لنا مجالات الفرح؛ لأننا عبيد لله وهو يملك مشارعنا وأفراحنا

(١) انظر: الأقوال في تفسير الطبري، (١٢/ ١٩٤).



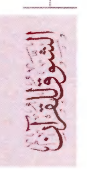
وكل شـيء منا، فليس الأمر متـروكًا لهواك يفرح بما يشـاء! فكيف وبعض ما نفرح به يغضب المولى سبحانه وتعالى؟!

وقـد وصـف الله سبحانه وتعالى المؤمنين بقولـه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦]، وفعل يفرحون فعل مضارع يفيد استمرار الفرح، والآية تصف شعور المؤمنين من أهل الكتاب وغيرهـم حينما تُنزَّل عليهم آيـة من ربهم، فهل انقطع هذا الشعور باكتمال نزول القرآن؟

إنَّ المؤمن الذي يتلذذ بقراءة القرآن، ويفهم معانيه، ويتأمله ويتدبره، ويجاهد نفسه على العمل، ويرزق الهداية، يأتيه شعور الفرح بما سـيقرأه من آيات ورده، والفرح بمـا يفتحه الله من معانٍ على قلبه وذهنه، والفرح أكثر حينما يعينه الله على العمل والثبات عليـه، فلا يزال في فرح إلى فـرح، وفي مقام البرزخ يَفرح بمحاجَّة القرآن عنه كما ورد في سورة الملك التي تشفع لصاحبهـا[1]، وفي عرصـات القيامـة يَفرح بشـفاعة القرآن لأصحابه، فقل لي: مَن يسـتحق أن يُفرح بـه غير هذا الكتاب المبارك النافع؟!



(١) رواه الترمذي، (٢٨٩٣)، وقال: «حديث حسن»، وابن حبان في صحيحه (٦٩)، والحاكم (١/ ٥٦٥) وصحَّحه، ووافقه الذهبي.



إنَّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتبعون الوحي تَتبُّع العطشان الولهان، تَتبُّع مَن علم أنه لا شفاء له إلا بهذا الكلام، وتتبعهم له نابعٌ من محبتهم للمتكلم به سبحانه وتعالى.

ومن فرح الصَّحابة رضي الله عنهم بالقرآن ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما: «إني لآتي على الآية من كتاب الله فأودُّ أن النَّاس كلَّهم يعلمون منها ما أعلم»(١)، مثل هذا الأثر يصحِّح النية لدينا في فقه التفسير ومعرفة معاني القرآن بأن نتمنى أن يعلم الناس منها ما تعلم.



إنَّ الفرح بالقرآن فرعٌ عن الفرح بالله، فمَن فَرِحَ بالله فَرِحَ بكلامه، وعلى قدر محبة الله سبحانه وتعالى يكون الفرح بكلامه، ولهذا حصرت الآية الفرح في فضل الله ورحمته؛ لأن الفرح لا يكون إلا بالله وحده.

والفرح بالقرآن فرعٌ عن محبته، فالمؤمن عليه أن يُحب القرآن، فهو صفة الله، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «مَن أحب القرآن فهو يُحبُّ الله ورسوله»(٢)، وعلى هذا استنتج ابن القيم رحمه الله أن محبة القرآن علامة على محبة الله فقال: «محبة

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١٠٢).

(٢) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير)، (٨٦٥٧).



كلام الله؛ فإنه من علامة حب الله، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن من قلبك»[1]، فإذا أحبَّ القرآن تلذَّذ بقراءتــه، واجتمع على فهمه ووعيه، وإذا لم يوجد الحب؛ فإنَّ إقبال القلب على القرآن يكون صعبًا[2].

ليس الفرحُ بالقرآن مجرد شـعور نفســي، إنما هو محركٌ للإرادة والهمة نحو القرآن، فلن تجد العبدَ الفَرِحَ بالقرآن هاجرًا له ولمعانيه، ســتجده مُتَّبِعًا لأوامره ونواهيــه، معظمًا لأخباره وقصصه، يأنس به، وفيه سلوةُ أحزانه، من فرحه بالقرآن يرى أن كلَّ شــيءٍ في الكون مصدقٌ لمــا في القــرآن، فالقرآن آيات مســطورة والكون آياتٌ مخلوقة، والله لــه الخلق والأمر سبحانه وتعالى،



ومن فرحه بالقرآن أنه يكتفي به وبالسُّنة عن غيرها من العلوم، ويجعلها الحاكمة على غيرها، ومن أعلى مقامات الفرح بالقرآن أن القارئ له يتألم لانتهاء الســورة، ويتمنى لو أنها أطول من ذلك، كما أن الفــرح بالقرآن يقتضــي ورود خواطر وواردات على الذهن في كلِّ مرةٍ تقرأ فيها القرآن غير الخواطر الســابقة مما هو من اللطائف القرآنية والأسرار البديعة.

---

(١) الجواب الكافي، ص(٥٥٠).

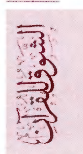
(٢) الإيمان بالقرآن الكريم: طه عبد الرحمن، ص(٧٢).

ما معنى أن القرآن عزيز؟

من أوصاف القرآن التي وصفه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها أنه ﴿لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، ومعنى ذلك أن للقرآن عزة، وأنه يورث العزة لأهله وأتباعه، وأما عزة القرآن فمن دلالاتها أنه لا ينفتح على مَن أعرض عنه ولا يستجديه، فمَن أعرض عن القرآن أعرض القرآن عنه، ومَن أقبل على القرآن تَمَنَّع منه القرآن اختبارًا وابتلاءً ليعلم الله ـ وهو العليم ـ صدقه في إقباله، ومَن زاد إقباله على القرآن أعطاه القرآن بعض أسراره، وسر ذلك أن القرآن نورٌ، فما دام أن هناك ظلمة في القلب فلا يتنزل القرآن إلا على قدر المحل القابل للنور، فإذا ذهبت الظلمات حلَّ النور في القلب وأقبل القرآن عليه وأعطاه من أسراره وكنوزه وأُلِين لمن يتلوه، وجال في فكره وعقله وقلبه من أنواع الحِكم والعِبر والهدايات ما يتحسر على فوات عمره بدونها، كما قال أمير المُؤمِنينَ عُثمَانُ بنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ أَنَّ قُلُوبَنَا طَهُرَتْ مَا شبِعت من كلام رَبِّنَا، وإِنِّي لَأَكْرَهُ أن يَأتيَ عَلَيَّ يومٌ لَا أَنْظرُ في المصحف»[1]، فانظر لأمير المؤمنين كيف ربط بين طهارة القلب والإقبال على القرآن، فليست القضية ـ إذن ـ مرتبطةً بفراغ الوقت إنما بطهارة القلب.



(١) أخرجه البيهقي في (الأسماء والصفات)، (٥٢٤).



وهناك ثلاث فئات من المسلمين أُمروا بقراءة القرآن مع ضيع أوقاتهم وهُمْ المذكورون في قول الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].. فكم الوقت من الفراغ الذي سيجده المريض، أو المغترب لطلب الرزق مع بعد الشقة، والمجاهد الذي يطلب الموت، ومع هذا أمروا بقراءة القرآن مما يدلُّ على أن القرآن لا يرتبط بفراغ الوقت وإنما بحاجة القلب له واضطراره له.

وأول عقوبات الله ﷻ لنا في ابتعادنا عن معاني القرآن هو انصرافنا عن فهمه والحرص على ذلك، فلا تجد في قلوبنا حرصًا على فهم معاني القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، والجزاء دائمًا من جنس العمل، فإنْ لم نتعاون وإلا فهناك عقوبات أخرى كهجرنا الاستشفاء به مع قراءتنا له، وهجرنا تحكيمه مع حاجتنا إليه، وآخر العقوبات ـ إنْ لم نتعاون على التوبة ـ هو صدنا عن قراءته وإقامة حروفه.



فانظرْ كيف أن القرآن يعامل الناسَ على قدر تعاملهم معه، فتفسير ضعف انتفاعنا بالقرآن هو: أننا معاقبون بذلك، وإلا فمعاني القرآن مبذولة واضحة يسيرة في أغلبها، نعم هناك فارق كبير بين مَن يعرض عن القرآن غفلةً وتكاسلاً، وبين مَن يعرض



عنه استهانةً وتكذيبًا، ولكن النتيجة في الحالتين واحدة وهي عدم الانتفاع بالآيات، فإنه لا ينبغي لأحد أن يأمن على نفسه العقوبات التي توعد الله أولئك المعرضين عن كتابه[1].

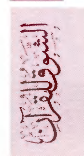
فأحد مكامن المشكلة هي أننا نقرأ آياتٍ في صفات الكافرين فنجعلها خاصة بهم وليست متعدية إلى غيرهم، وليس لغيرهم نصيبُ منها، فقول الله ﷻ عن الكافرين: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧]، نقرأها ونمر عليها سريعًا؛ لأنها لا تعنينا!! فهي في قوم ذكروا بآيات الله ولم يسلموا، وهذا صحيح إلا أن الآية عامة تشمل كلَّ مَن ذُكِّر بآيةٍ من آيات ربه فأعرض ولم يبالِ ولم ينقاد للعمل، ونسي ما سلف من ذنوبه، ونحن من هذا الصنف، فقد ذُكِّرنا ببعض المواعظ عن المنهيات فارتكبناها، وذُكِّرنا ببعض المأمورات فتهاونا، وظلمنا لأنفسنا كبير كثير؛ لأننا نؤمن بالقرآن ومع هذا أعرضنا.



والإمام سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يلحظ هذا الملحظ في قوله الله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قال: «أَنْزِعُ

---

(١) غربة القرآن، ص(٤٤).

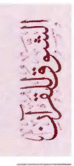


عَنْهُمْ فَهْمَ الْقُرْآنِ فَأَصْرِفُهُمْ عَنْ آيَاتِي»[1]، فنزعُ فَهْمِ القرآن ـ إذن ـ هو عقوبةٌ يعاقب الله بها.

وتأملوا قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، تأملوا آخر الآية ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هل ناداك أحدٌ من مكان بعيد فلم تفهم ما يقوله وبالتالي لم تستجب له، ولم تعمل به، بل زهدت فيه؟! هذا حال مَن قرأ القرآن ولم يفهم معانيه يكون القرآن بالنسبة له كالذي يُنادى من مكان بعيد، يسمع صوتًا ولا يفهم قولاً، والآية تدلُّ على أن على هذا المُنادى من مكان بعيد كان الحل سهلاً بالنسبة له وهو أن يقبل على ذلك الدَّاعي المنادي ويسمع منه من قُرب، فكذلك قارئ القرآن كان واجبًا عليه أن يقترب من القرآن ليسمعه عن قُرب قلب.. هذا كلُّه من عزة القرآن.

ولفظ العزة للقرآن يشعر بالخضوع للقرآن كما يفعله مَن له حاجة عند مَن هو عزيز ويستحق العزة، ومن عزة القرآن أن القلب المحجوب بالشهوات، والمفتون بتتبعها، والمتبع لهواه، لن يجد القرآن إلى قلبه سبيلاً لإصلاحه حتى يزيل هذه

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤٧٥)، وتفسير الطبري، (١٠/ ٤٤٣).



الحُجُب، ويرفع هذه الموانع، عند ذلك يفتح طريق لأن يدخل القرآن وهو عزيز لهذا القلب فينير جوانبه، ومن عزة القرآن أيضًا أنه لا يرضى أن يساكنه في القلب فتن وأمراض بل يطردها فلا يبقيها بجواره ما دام أن صاحبه متدبر له مُتفكِّرًا في معانيه، والعجيب حقًّا أن أيَّ جزءٍ من أجزاء القلب متى خالطه القرآن عادت إليه الحياة بعد موته، فيحيا حياة جديدة بإذن الله، فالقوة الغضبية الموجودة في القلب والتي كانت تنصرف للعصبيات والجاهليات بعدما خالطها القرآن أحياها فانصرفت للغيرة على حرمات الله، والهمة العالية التي تقود صاحبها إلى المعاني العظيمة مما يحبها الله سبحانه وتعالى.



القرآن خاتم الرسالات والكتب:

منذ إهباط الله سبحانه وتعالى لأبينا آدم عليه السلام يرسل الله رُسولاً كلما انحرفت البشرية عن دين الله، ويعطيه من المعجزات والآيات ما يؤمن عليه البشر، وكلما أنزل كتابًا على أمة من الأمم أتبعه بكتاب آخر لأمة أخرى، ومنذ مبعث النبي صلى الله عليه وسلم لم ينزل الله ولن ينزل إلا القرآن حتى قيام الساعة، مما يدلُّ على أنه سيكون كافيًا للناس جميعًا وليغطي الفترة إلى قيام الساعة، وهذا ليس لكتاب غيره.



وهنا عدة أسئلة:

كم قدَّر الله ﷻ شخصًا سيعيش ما بين مبعث النبي ﷺ إلى قيام الساعة من الجن والإنس؟ ألم يحدث طوال هذه الفترة أمراض إيمانية وقلبية وسلوكية؟ ألم تستَجِد للناس مع تجدُّد الأجيال حاجاتٌ؟ ألم تختلف حياة أهل الجيل الواحد حسب ظروفهم؟ مع هذا وغيره إلا أن القرآن كافٍ لهم جميعًا، ولهذا جعل الله ﷻ كلامه بلُغة عربية عذبة سلسلة، بحيث يستطيع أيُّ إنسان أن يفهم الحقائق الأساسية مهما كان حظه من الثقافة، وجعل الله رسالة القرآن رسالة موجزة ليسهل حملها وحفظها وقراءتها كما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، ولكي يتم دوام الاستفادة منها كان من الضروري أن يداوم المسلم على قراءتها يوميًّا، فكان التحفيز وشحذ الهمم لذلك برصد الجوائز لكلِّ مَن يقرأ حرفًا، فيكون ذلك دافعًا لقراءتها، ولقد جعل الله مواضيعها الأساسية مكررة في كثير من السُّور بأساليب مختلفة لتتم التذكرة في أيِّ موضع يلتقي فيه المسلم مع القرآن(١).



هذه المنزلة العظمى له تُحتِم وجوب العودة للقرآن تحقيقًا للمقصود الذي وضعه الله، وسؤال آخر يعزِّز ما سبق وهو:

(١) العودة إلى القرآن، ص(١٠) باختصار.



أليست وفاة النبي ﷺ وذهاب شخصه مع بقاء الكتاب الذي أنزل عليه دليلاً على أن هذا الكتاب العزيز قادرٌ على إخراج مؤمن يعبد الله كما فعل بالصحابة رضي الله عنهم ؟

إنَّ النبي ﷺ بداية الإسلام قَصَرَ الصحابة رضي الله عنهم على القرآن وحده، وأمرهم أن يمحوا ما عداه، بل نهاهم عن كتابة حديثه ﷺ، ولم يكن هذا النهي إلا لأجل أن يزال كل حاجز بين القرآن وقلوبهم، ولتُصنع قلوبهم على معاني القرآن، فهو يريد أن الذي يسقي قلوبهم هو القرآن وحده، وقد شُبِّه القرآن بالغيث وهو الماء الطهور الذي لم يخالطه غيره، وهذا أحد مميزات الصحابة رضي الله عنهم أنهم لم يخلطوا مع نصوص الوحي غيرها، فغسلت قلوبهم وطهرتها.



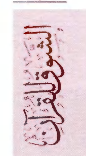
القرآن مأدبة[1]:

جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه ـ وهو صاحب القرآن ـ تسمية القرآن بمأدبة الله فقال: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ؛ فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَأْدُبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[2].

---

(١) وهذا الاسم صالح لتسمية بعض مشاريع القرآن بـ(مأدبة الله).

(٢) أخرجه البزار (٢٠٥٥)، والدارمي في (فضائل القرآن)، (٢/ ٤٣١)، وقال الهيثمي في (المجمع)، (١/ ٢٨): «رجاله موثوقون»، وضعَّفه الألباني في (الضعيفة) (١٤/ ٧٨٥).



وقوله مأدبة الله يحتمل مقصودين هما[1]:

(أ) مأدُبة ـ بِضم الدَّال: والمراد الصَّنِيع يصنعه الرجل فيدعو النَّاس إِلَيْهِ، فتأويل الحَدِيث: أَنه شبَّه الْقُرْآن بصنيع صنعه الله للنَّاس لَهُم فِيهِ خير وَمَنَافع ثمَّ دعاهم إِلَيْهِ.

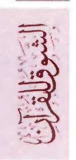
(ب) مأدَبة ـ بفتح الدَّال: وهو من الْأَدَب، والمراد أن القرآن فيه تعاليم الأدب.

والقرآن جمع الأمرين، فهو غذاء للقلوب، والله يدعونا لنشبع جوعنا منه، ومَن لم يُجب الدعوة لمأدبته فسيبقى جائعًا ولن يشبعه شيءٌ، وكذلك في القرآن تأديب العبد المؤمن، والآداب التي يسير عليها في تعامله مع ربه ومع الخلق، وعلى هذا؛ فينبغي أن يكون سهلاً ميسورًا.



ومن أعجب يسر القرآن وسهولته ما أشار إليه الدكتور دراز في كتابه العظيم (النبأ العظيم) بقوله: «وهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما

(١) غريب الحديث لابن الجوزي، (١/ ١٥).



لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك إنْ أدرت أن تعطي كلتا الطائفتين حظها كاملاً من بيانك أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال، فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء وإلى الأذكياء والأغبياء وإلى السوقة والملوك، فيراها كلٌّ منهم مُقَدَّرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته، فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم، لا يلتوي على أفهامهم ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللُّغة، فهو متعة العامة والخاصة على السَّواء ميسر لكلِّ مَن أراد، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]»[١].



والقلب يتأثر بالأعمال الصالحة إلا أن تأثره بالقرآن لا يعادله شيء؛ لأن القرآن أُنزل للقلب كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤]، ولهذا تتابع السَّلف رحمهم الله على هذه المأدبة واستغنوا بها عن غيرها، فهذا ابن مسعود رضي الله عنه قال: «قِرَاءَةُ القُرآنِ أَحبُّ إليَّ مَن الصَّومِ»[٢]، والصَّومُ من العبادات التي استأثر الله بأجرها.

(١) النبأ العظيم، ص(١١٣).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، (٣٠٧١٤).



ومن فقه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قارن مقارنةً لا أظن أحدًا يقارن مثلهـا؛ حيث قال: «**لَوْ بَـاتَ رَجُلٌ يُنْفِقُ دِينَارًا دِينَارًا، وَدِرْهَمًا دِرْهَمًا، وَيَحْمِلُ عَلَى الْجِيَادِ فِي سَـبِيلِ اللهِ، وَبَاتَ رَجُلٌ يَتْلُو كِتَابَ اللهِ حَتَّـى يُصْبِحَ مُتَقَبَّلاً مِنْهُ، وَبِتُّ أَتْلُو كِتَابَ اللهِ حَتَّى أُصْبِـحَ مُتَقَبَّلاً مِنِّي، لَمْ أُحِبَّ أَنَّ لِي عَمَلَهُ بِعَمَلِـي**»(١)، ولنعلـم أن قول عبد الله رضي الله عنه ليس على سـبيل المبالغـة إنما نابعٌ من رجل فقيه فـي عبودية الله، لأن الله لم يُتَعَبَّد إليه بمثل كلامه.



ومن فضيلة القرآن عند الله سبحانه وتعالى أن الـمَلك لا يكتب الخطأ في القرآن، فإذا قرأ قـارئ القرآن وأخطأ عن غيـر عمدٍ؛ فإنَّ المَلك الذي يكتب الأعمال يكتب الآية كما أُنزلت وليس على ما أخطأت(٢)، وهذا لها حكم التعتعة الشّاقة على المؤمن.

ومـن جلسـات الأُنـس بيـن الصَّحابـة رضي الله عنهم ما حـكاه أبو الأحوص رضي الله عنه قال: «**كُنَّا فِي دَارِ أَبِي مُوسَـى مَـعَ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ عَبْـدِ اللهِ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ فِي مُصْحَـفٍ، فَقَامَ عَبْدُ اللهِ، فَقَالُ أَبُو مَسْـعُودٍ: مَا أَعْلَمُ رَسُـولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم تَرَكَ بَعْدَهُ أَعْلَمَ بِمَا**

(١) المصدر السابق، (٣٠٧١٢).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١٠٦)، وفضائل القرآن لابن كثير، ص(١١٠).



أَنْزَلَ اللهُ مِنْ هَذَا الْقَائِمِ»[1]. فانظرْ لهذه الجلسة التي مُلئت أُنسًا وبهجةً، ينظرون فيها في المصحف، ويتحدَّثون به، فكمْ نحتاج في جلساتنا لمثلها بأن يكون محور كلامنا آية من كتاب الله وما فيها من المعاني والهدايات.

القرآن وُحْدَة قياس:

مِنْ تغلغل القرآن في حياة الصحابة رضي الله عنهم أنه أصبح وُحدةَ قياسٍ لهم يقيسون على ضوئه أمور حياتهم، فقد كان العرب يؤقتون أوقاتهم بحلب الناقة ونحر الجزور، فأصبحوا يقولون: على قدر قراءة خمسين آية، وعلى قراءة سورة البقرة، وكان يعلِّمنا كما يعلِّمنا السُّورة من القرآن، فزيد بن ثابت رضي الله عنه يخبرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاه ليلة لتناول السحور معه، فقيل لزيد: كم بين سحوركم وسجودكم ـ أي: صلاة الفجر ـ قال: قدر خمسين آية[2]، والعجيب حقًّا أن السَّائل سكت ولم يقلْ: قدر كم يعني؟! لأن القرآن أصبح وحدة قياس لهم، فأصبحوا جميعًا يعرفون مقدار خمسين آية، وأتوقع أننا لا نعرف مقدار ذلك اليوم؟!



---

(١) صحيح مسلم، (١١٣).

(٢) المصدر السابق، (١٠٩٧).



وحُرِز قيــام الصَّحابــة رضي الله عنهم للدُّعاء عند رمــي الجمار في الحج، فحُدد لنا بوحــدة القياس القرآنية، وهــي عدد الآيات والسُّــور، قَامَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما حِينَ رَمَى الْجَمْرَةَ عَنْ يَسَارِهَا نَحْوَ مَا لَوْ شِئْتَ قَرَأْتَ سُــورَةَ الْبَقَرَةِ، وَعَنْ أَبِي مِجْلَزٍ رضي الله عنه فِي حَزَرِ قِيَامِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «فَكَانَ قَدْرَ قِرَاءَةِ سُــورَةِ يُوسُفَ»، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّهُ كَانَ يَقُومُ بِقَدْرِ قِرَاءَةِ سُورَةٍ مِنَ الْمِئِينَ»(١)، وهذه الآثار تدلُّ على تغلغل القرآن في حياتهم حتى أصبح أداة قياس، وهذا لا يكون إلا بعد أن يتعلَّــق الجيلُ بكامله بالقرآن حتى غيَّر القرآن حياتهم.



ودخل القــرآن أيضًا في حياتهــم الاجتماعية حتى أصبح مهرًا للنساء، كما في حديث ســهل بن سعد رضي الله عنه(٢)، وأصبح ذلك مَرْضيًّا عنــد الزوجة وأهلها وصاحباتهــا، وهذا التغلغل القرآني في الحياة يصحبه ولا بُدَّ كثرة قراءةٍ ونظرٍ وصحبةٍ.

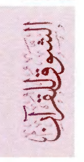
ولما ذكر جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما حديث الاستخارة قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُعلِّمنَا الاستخَارَةَ كَما يُعلِّمنا السُّورةَ مِن القُرآنِ»(٣)، فأصبحت طريقة تعليم السُّور منهج يُقاس عليه غيره.

---

(١) سنن البيهقي، (٥/ ٢٤٢).

(٢) صحيح مسلم، (١٤٢٥).

(٣) صحيح البخاري، (١١٦٢).



وهذا عمر رَضِيَ الله عَنْهُ يقول: «تعلَّموا الفرائضَ والسُّنةَ كما تتعلَّمونَ القُرآنَ»[1]، فلم يكنْ شيءٌ يُقَدَّم على تعليم القرآن، وإذا أرادوا أن يجتهد طلاب العلم في فقه باب من أبواب العلم أمروهم أن يتعلَّموه كما يتعلَّمون القرآن.

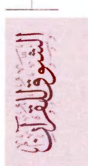
ثم خلف مِن بعدهم خلوف ـ عفا الله عنهم ـ أضاعوا القراءةَ واتبعوا شهوات الهوى حتى لم يعد القرآن وحدة القياس والذوق عندهم، وتخلف القرآن عن وحدة القياس يدلُّ على تنحيته عن شئون الحياة، فخرج من التغلغل إلى أوقات المناسبات الخاصة كالاحتفالات أو حالات دخول المستشفيات أو غيرها على نطاق محدود.



القرآن هُدى وشفاءٌ:

وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلامه بقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وهنا عدة أسئلة: لماذا اقترن الهدى مع الشِّفاء دون غيرهما؟ ولِمَ قدَّم الهُدى على الشِّفاء؟ وهل هذه الهداية والشفاء تحصل بمجرد تلاوة اللفظ دون فقه المعنى؟

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، (١٠/ ٤٥٩)، والدارمي، (٢/ ٣٤١)، ورجاله ثقات.

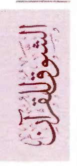


إنَّ معركة الشيطان مع العبد تدور في مجالين هما: إفساد التصور، وإبطال الإرادة، فالقرآن يصحِّح التصور وهو الهُدى، ويعالج الإرادة وهو الشِّفاء.

فالقــرآن ـ إذن ـ لا يكتفــي أن يدلك علــى طريق الحقِّ والإيمان والخير والفلاح، بل يأخذ بيدك ويعالج أمراضك حتى تتشافى شيئًا فشيئًا فيقودك للعمل كما قادك للهداية، وهذا أحد أوجه اختلاف القرآن عن غيره من كتب الحكمة، وقد اختصر ذلك أبو الدرداء رضي الله عنه فقال موصيًا أهل الكوفة: «أَقْرِئْهُمُ السَّلَامَ وَمُرْهُمْ فَلْيُعْطُــوا الْقُرْآنَ بِخَزَائِمِهِمْ؛ فَإِنَّــهُ يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْقَصْدِ وَالسُّــهُولَةِ، وَيُجَنِّبُهُمُ الْجَوْرَ وَالْحُزُونَــةَ»[1]. إنَّ قوله: (فَلْيُعْطُوا الْقُرْآنَ بِخَزَائِمِهِمْ) هي بمعنى أن يضعوا في أنوفهم خزامة مثل التي توضع في أنف البعير ليُشــد بها، ثم يسلموا تلك الخزامة للقرآن ليقودهم إلى القصد والسهولة والفلاح والخير العميم.

وعند كلمة (شفاء) ينبغي أن نتصور أن الشفاء لا يتم دفعة واحدة، بل ينمو الشفاء كما يزداد النور شيئًا فشيئًا، وقد يتماثل العبد للشــفاء ولا تزال فيه بقية من مرض تــزول مع مداومة العلاج والاستمرار عليه، وكذلك حال القرآن مع صاحبه فهو

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام، ص(٧٢).



يشافيه، وقد تبقى بقية من أمراض خفية يزيلها القرآن إذا تغلغل داخل النفس وأعماقها.

وقد ربطت الآية الهُدى والشِّفاء مع الإيمان مما يدلُّ على أن هناك علاقة بين تحقيق الإيمان وجعل القرآن هدى وشفاء، وهو يُصدِّق ما قاله السَّـلف أنهم تعلَّموا الإيمان قبل القرآن، فلنُجدِّد ـ أخي ـ الإيمان في قلوبنا ثم لنقرأ القرآن.

فالقرآن يهدي؛ لكن ما معنى هدايته؟!

إنَّ هداية القرآن هي أن يدلك ويرشدك إلى الله سبحانه وتعالى، فيجيب عن كلِّ سؤال قد يستغله الشيطان للحيلولة بينك وبين الله، فتجد في القرآن أجوبة على الأسئلة الكبرى، وأول ما هدانا القرآن إليه تعريفنا بإلهنا وسـيدنا ومولانا، فعرفنا أسـماءه وصفاته وأفعاله ومحبوباته ومبغوضاته وسُنته في عباده وكل ما يتعلق بالسِّيد.



ثم يعرفنا القرآن برسل الله ـ عليهم السَّلام، فلأنه سبحانه وتعالى متكبر فلم يكلِّم عباده بنفسه وهو ملك الملوك، بل اختار أفضل عباده وأرسلهم إلى العباد، يخبرونهم عن سـيدهم وما يحبه وكيف يتذللون له، ويقومون بخدمتـه[1]، ومن خلال التعريف بهؤلاء

---

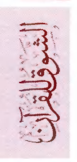
(١) كان بعض السَّلف يطلق على العبادة خدمة، ولا مشاحة في المصطلح إذا فهم المقصود.



الرُّســـل تتحرَّك الفطرة لمحبتهم والاقتداء بهم، وعلى رأسهم أفضلهم على الإطلاق نبيُّنا محمد ﷺ، والذي تُغطي رســـالته الفترة الزمنية إلى قيام الســـاعة، مما يقتضي أن يكون على قدر من الصِّفات والتعبُّد ما يوازي هذا الزمن الطويل الممتد، فصلِّ اللهم وسلِّم عليه.

والقرآن يجيب على الأســئلة التي تتعلــق ببداية الوجود ونهايته، فالقرآن ذكر لنا أعمق نقطة في التاريخ وهي خلق أبينا آدم عليه السلام، وأبعد نقطة في المســـتقبل وهو دخول الجنة والنار، وذكر لنا ما يهمنا مما هو بين ذلك، ويجيب القرآن عن أســئلة النفس الغامضة المتلونة، وعما حولنا، وكيفية التعامل الصَّحيح معها ليتوافق مــع فطرة الله التي خلق عليهــا الكون، وأعجب ما يفصــل فيه القــرآن قضية الهــوى والتي هــي مدخل عدو الإنســان، فحدَّد القرآن طريقة التعامل معه، ومتى يُطاع ومتى يُعصى؟ وهو أيضًا يذكر نماذج لبشر مثلنا لديهم ما لدينا ومع هذا أفلحوا، فيُحَفِّزنا بقصصهم، ويخوِّفنا من آخرين انحدروا، وكذلك أعاد القرآن وكرَّر ما يتعلَّق بالقلوب وأقسامها وصحتها وأمراضها ما لو تفقَّه فيها عبدٌ مؤمنٌ موفقٌ لتخرج طبيبَ قلبٍ حقيقيًّا، يعالج ما لا يُعالج اليوم في أمراض القلوب.





ومما فصَّل القرآن ـ ليهدينا ـ ذِكْر عدونا الأكبر الشَّيطان الرَّجيم، فذكر صفاته وكلامه وأفعاله وحربه وطرقه ومنهجه ومداخله وكيده وحيله وكلَّ ما يتعلَّق به مما لم يترك لنا عذرًا إنْ اغتررنا بعد ذلك به.. كلُّ ذلك لهداية الناس ودلالتهم كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولو ركَّزنا في تلاوة القرآن على الأمر الأول وهو ما يتعلَّق بتعريفنا بمولانا وسيدنا لاكتشفنا من خلال ذلك إجابة بقية الأسئلة، فمَن عَرِفَ إلهه حقيقة المعرفة انكشف له أجوبة الأسئلة الكبرى التي حيَّرت غيره، ومَن عَرَفَ إلهه عَرَفَ نفسه، فَمَن عرف ربَّه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومَن عرف ربَّه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام، ومَن عرف ربَّه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومَن عرف ربَّه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل[١]، وبالتالي عرف أنه مخلوقٌ ليس له غنى عن سيده، فلا بُدَّ أن يعلِّق عليه اعتماده وعونه، فالله هو المعبود وهو المستعان.



ولم يُفَصِّل القرآن في شيءٍ كما فصَّل في تعريفنا بالله؛ لأن علاقتنا به مبنية على مقدار معرفتنا به، ولهذا عرفنا بنفسه في

---

(١) طريق الهجرتين، ص(٩).



كلِّ آية وليس هذا من باب المبالغة، وعلى سبيل المثال عندما يتعرَّف الواحد منا على شـــخص ما معرفة عامة، فإنَّ نظرته له ســتكون نظرة عادية، مثله مثل غيــره لا تلفــت انتباهه، فإذا ما اقتــرب منــه وازدادت معلوماته عنه وعــن قدراته وخبراته وشهاداته أو المنصب الذي يتولاه؛ فإنَّ هذا من شأنه أن يزيده احترامًا وهيبةً وتقديرًا لهذا الشخص، مما سينعكس على طريقة تعامله معه، والتي بلا شكٍّ ستختلف كثيرًا عما كان من قبلُ[1].

هذه هداية القرآن، وأما شــفاؤه؛ فالمهـــم أن نعطي القرآن وقتًا ليُحدث فينا شــفاءه وأن نســتمر على علاجه حتى تزول خفايا الأمراض القلبية.



والشِّفاء لا يحصل بمجرد قراءة اللفظ فقط ولو كان الهدى والشفاء يحصل بمجرد اللفظ الذي لا يفقه معناه لحصل به إذا كان أعجميًّا بطريق الأولى، بل الهدى والشــفاء إذا فهم معناه أتم وأكمــل بلا ريب[2]، فإنْ حصل بمجرد اللفظ شــفاء؛ فهو شفاء يغادر سقمًا، وســرعان ما تنتكس الحالة الإيمانية للقلب وقد يرجع بوضع أشد سُوءً من السابق.

---

(١) العودة إلى القرآن، ص(١٧).

(٢) بيان تأسيس الجهمية، (٨/ ٣٣٤).



والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق خلقه ومنَّ عليهم بشفاءين، شفاء للأبدان وآخر للقلوب، كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ: الْقُرْآنِ وَالْعَسَلِ»(1)، والشَّيطان تسلَّط بسُمْين أحدهما للأبدان والآخر للقلوب، وهما الأمراض والذنوب.

وهذا يستدعي أن تتعاون مع القرآن في تحقيق الهداية وتماثل الشفاء، فلا تجعل بينك وبينه حجابًا من المعاصي والأكنة، وحجابًا من الإعراض والغفلة، بل أقبل على القرآن وأطعه في أوامره ونواهيه، وتأدَّب بآدابه، وتَعَرَّف على مَن يعرفك عليه، وصدِّق بأخباره، واعرضْ حالك وما تشكوه في إيمانك على القرآن؛ فستجد العلاج، ثم خُذْه وأنت مطمئنٌّ موقنٌ بأنه شفاؤك الذي لا يغادر سقمًا من أسقامك إلا أزاله.



القرآنُ يَهُزُّ:

مَن يقرأ النصوص التي تكلَّمت عن القرآن لا بُدَّ أن يجد أنها أجمعت على ذكر قضية مشتركة بينها، وسأذكر عددًا من النصوص ثم ننظر في الأمر المشترك:

- فقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] فلم يكتفِ بخشوع الجبال

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٥٧).



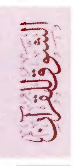
مع أنه المقصود حتى أضاف إليه التصدُّع، فلماذا هذه الإضافة؟ وماذا تفيد؟ وما هذا الشَّيءُ الذي صدَّع الجبال مع قوتها ونحن نرى الجهد الذي يبذل لتكسير جزء يسير من الجبل؟ أليس هذا دليلاً على أن الجبل جاءه ما هو أقوى وأشد صلابةً منه؟!

وذكر الجبل ـ والله أعلم ـ لبيـان أن غيره من المخلوقات أولى بالتصدُّع منه، فما قوة الحجارة والتراب والأشجار والمياه والنجوم والكواكـب والحيوانات أمام قوة الجبـل، فإذا كان الجبل الأصم يتصدَّع؛ فكيف يكون حال غيره من المخلوقات؟!

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١]، والمعنى: لو كان في الكُتُب الماضية كتابٌ تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشـق أو تكلم به الموتى في قبورها؛ لكان هـذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه مـن الإعجاز[1]، فلاحظ الكلمات (سـيِّرت) (قطِّعت) (كلِّم)؛ فلماذا هذه الأمور الكبيرة دون غيرها؟

ـ قوله تعالـى عن الجـن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، فتأمل كلمة (ولَّوا) فماذا فعل

(١) تفسير ابن كثير، (٤/ ٤٦٠).



القرآن بهــم؟ وخُلو الكلمة من حــرف العطف يدلُّ على أن الجن بعدما انقضت قــراءة القرآن عليهم من النبي ﷺ ذهبوا مباشرةً إلى إنذار قومهم ولم يمهلوا أنفسهم لحظة للتفكير أو المشاورة، ما سر هذه العجلة الغريبة لكلام غير معهود لهم؟ ما الذي غيَّر منهج هؤلاء الجن الذي اطلعوا على ما لم يطلع عليه البشر، ولهم من القوة ما ليس للبشر في بعض الجوانب؟ لا بُدَّ أن يكون شــيئًا أقوى مــن الجن وطيرانهــا وغوصها وبنائها.



ـ وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فذكر الله سبحانه وتعالى القشعريرة دون غيره من تأثر العبد بالقرآن؛ فلِمَ ذلك؟!

الخيطُ النَّاظمُ بين هذه الأمثلة هو أن القرآن لا بُدَّ أن يُسبِّب هزةً سواءً في الجمادات أو الأنفس والجن والإنس، فالقرآن له سلطان وهيبة وقوة على المخاطبين، يهزهم أول ما يصل إليهم، يثير مكامنهم، يطرد ما لا يناسبه، كالنور إذا دخل مكانًا مظلمًا يغيِّر معامله ويبــدِّل حاله، فالقرآنُ له قهر لكلِّ مَن يســتلم له، يقهره ويعطيه الذل والخضوع للمتكلم بهذا الكلام، وهذا أصل العبودية.



أليس عجيبًا أن القرآن أذلَّ الكِبرَ الموجود في قلوب المخالفين؟! ألمْ تمتلئ قلوبهم من الكِبر والاستعلاء؟ فإذا بذلك كلِّه ينهار أمام القرآن، مع أنهم لو جلسوا سنين طويلة لإزالتها لم تتغيَّر طبائعهم.

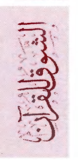
حتى الملائكة الكِرام البررة، أصحاب الخلقة العظيمة، والمنظر الحسن كما قال خالقهم عن جبريل عليه السلام ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦]، فمنظره مهيب جميل مستوي الخَلق والخُلق، كلهم يستمعون القرآن، ويتلونه على أحد الأقوال في قوله تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ٣][(١)]، ومِن شدة تعلقهم بالقرآن أنهم يبحثون عن أصحابه الذين يتلونه فيقتربون منهم حتى يضعون أفواههم على أفواه قارئ القرآن، كما في الحديث: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَلْيَسْتَكْ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَرَأَ فِي صَلَاةٍ وَضَعَ مَلَكٌ فَاهُ عَلَى فِيهِ، فَلَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ شَيْءٌ إِلَّا دَخَلَ فَمَ الْمَلَكِ»[(٢)].



فالقرآن لا بُدَّ أن يورث قارئه وسامعه هذه الهزة التي تزيل الحجاب بينك وبينه، والتي تُظهِر للعبد حقيقة ضعفه وفقره

(١) تفسير القرطبي، (١٥/ ٦٢).

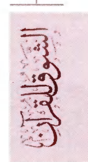
(٢) أخرجه البيهقي في (الشعب)، (٢١١٧)، وصحَّحه الألباني في (صحيح الجامع)، (٧٢٠).



وعجزه أمام هذه الهيبة الربانية القوية، فيستسلم له وينقاد معه، ولا يستطيع أن يقاومه، وليســت تلك الهزة اهتزاز خوف فقط لكنه اهتزاز مهابة، فهذا النجاشي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حينما سمع بداية سورة مريم بكى، فأين الذي يبكي في ســورة مريــم؟ هل هناك ذكرٌ للعــذاب؟ أو وعيــد وتهديــد؟ كلا، إنَّ الــذي أفــاض عين النجاشي رَحِمَهُ اللهُ ذكر الرحمة الربانية التي وسعت زكريا ومريم - عليهما السَّلام، وما تشتمل قصتهما عليه من رأفة وفرج وفرح، ألســنا نتفاعل مع بعض القصص التي نســمعها من قصة برٍّ، وقصة فرج بعد يأس، حتى أن أعيننا تدمع أحيانًا مع أن القصة من التاريخ الماضي؛ فكيف إذا كان المتكلم بذلك هو الرءوف الرحيم، ومَن أصدق من الله قيلاً.



إنَّ القرآن هزَّ النجاشي رَحِمَهُ اللهُ فأثار مكامن الرحمة في قلبه، قد يكون عند النجاشي رَحِمَهُ اللهُ تلك اللحظة همومٌ وأمورٌ شغلت باله، فجاءته الآيات تعطيه حلاً لها من خلال ربطه بالله الرحيم الذي فرَّج عن زكريــا ومريم - عليهما السَّــلام.. طردت تلك الآيات الشــكوك التي ألقاها الشــيطان على قلبــه، أثبتت تلك الآيات في قلب النجاشي رَحِمَهُ اللهُ رجاءه لله وخوفه منه ومحبته له، رفعت يقنه بــأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كبير الــذات والقــدر والأفعال، وأن ما دونه ليس له شيءٌ ولا يقدر على شــيء، فإلهه أولى بتعلقه



واهتمامه والارتباط به، كان هذا عند النجاشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم جاءت الآيات تقرِّر ذلك له، وإنما أردتُ أن أضرب مثالاً بالنجاشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي ازداد إيمانًا بالله حين سماع الآيات وعرف أنها والذي أُنزل على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يخرجان من مشكاة واحدة.

فإنْ قُلتَ: كيف للقرآن أن يهزَّ مشاعري؟! وهل هناك أنموذج أحتذي حذوه؟! فاسمع ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر لك كيف تقرأ القرآن تحت فصل عَنْوَن له بقوله:

«**فصل: الْقُرْآنُ كَلَامُ الله**، وَقد تجلَّى اللهُ فِيهِ لِعِبَادِهِ وَصِفَاته: فَتَارَة يتجلى فِي جِلْبَاب الهيبة وَالْعَظَمَة والجلال فتخضع الْأَعْنَاق وتنكسر النُّفُوس وتخشع الْأَصْوَات ويذوبُ الْكِبرُ كَمَا يذوبُ الْملحُ فِي المَاء، وَتَارَة يتجلَّى فِي صِفَات الْجمال والكمال وَهُوَ كَمَال الْأَسْمَاء وجمال الصِّفَات وجمال الْأَفْعَال الدَّال على كَمَال الذَّات، فيستنفد حبه من قلب العَبْد قُوَّة الْحبِّ كلهَا بحبِّ مَا عرفه من صِفَات جماله ونعوت كَمَاله، فَيُصْبح فؤاد عَبده فَارغًا إِلَّا من محبته، فَإِذا أَرَادَ مِنْهُ الغيران يعلق تِلْكَ الْمحبَّة بِهِ أَبى قلبه وأحشاؤه ذَلِك كل الإباء، كَمَا قيل:

يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نِسْيَانُكُمْ ... وَتَأْبَى الطِّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ

فَتبقى الْمحبَّة لَهُ طبعًا لَا تكلفًا.





وَإِذا تجلَّى بِصِفَات الرَّحْمَة وَالْبر واللطف وَالْإِحْسَان انبعثتْ قُوَّةُ الرَّجَاءِ مِن العَبْد وانبسط أمله وَقَوي طمعه وَسَار إِلَى ربِّه وحادي الرَّجَاء يَحْدُو ركاب سيره، وَكلما قوي الرَّجَاء جد فِي الْعَمَل، كَمَا أَن الباذر كلما قوي طمعه فِي الْمغل غلق أرضه بالبذر وَإِذا ضعف رجاؤه قصر فِي الْبذر.

وَإِذا تجلَّى بِصِفَات الْعدْل والانتقام وَالْغَضَب والسخط والعقوبة انقمعت النَّفسُ الأمَّارةُ وَبَطلَتْ أَو ضعفتْ قواها من الشَّهْوَة وَالْغَضَب وَاللَّهْو واللعب والحرص على الْمُحرمَات وانقبضتْ أَعِنَّة رعوناتها، فأحضرت المطية حظها من الْخَوْف والخشية والحذر.



وَإِذا تجلَّى بِصِفَات الْأَمر وَالنَّهْي والعهد وَالْوَصِيَّة وإرسال الرُّسُل وإنزال الْكتب شرع الشَّرَائِع انبعثتْ مِنْهَا قُوَّة الِامْتِثَال والتنفيذ لأوامره والتبليغ لَهَا والتواصي بهَا وَذكرهَا وتذكرها والتصديق بالْخبر والامتثال للطلب والاجتناب للنَّهْي.

وَإِذا تجلَّى بِصفة السَّمع وَالْبَصَر وَالْعلم انْبَعَثْ من العَبْد قُوَّةُ الْحيَاء، فيستحي ربه أَن يرَاهُ على مَا يكره أَو يسمع مِنْهُ مَا يكره أَو يخفي فِي سَرِيرَته مَا يمقته عَلَيْهِ، فَتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشَّرْع غير مُهْملَة وَلَا مُرْسلَة تَحت حكم الطبيعة والهوى.

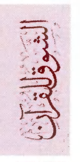


وَإِذا تجلَّى بِصِفَات الْكِفَايَة والحسب وَالْقِيَام بمصالح الْعباد وســوق أَرْزَاقهم إِلَيْهِم وَدفع المصائب عَنْهُـم وَنَصره لأوليائه وحمايته لَهُم ومعيته الْخَاصَّة لَهُم انبعثتْ من العَبْد قُوَّةُ التَّوَكُّل عَلَيْهِ والتفويض إِلَيْهِ وَالرِّضَا بِهِ وَمَا فِي كلٍّ مَا يجريه على عَبده ويقيمه مِمَّا يرضى بِهِ هُوَ سُبْحَانَهُ، والتوكل معنى يلتئم من عِلم العَبْد بكفاية الله وَحُسن اخْتِيَاره لعَبْدِهِ وثقته بِهِ وَرضَاهُ بِمَا يَفْعَله بِهِ ويختاره لَهُ.

وَإِذا تجلَّى بِصِفَات الْعِزّ والكبرياء أَعْطَتْ نَفســه المطمئنة مَا وصلت إِلَيْهِ من الذل لعظمته والانكســار لعزته والخضوع لكبريائه وخشوع الْقلب والجوارح لَهُ، فتعلوه السكينَة وَالْوَقار فِي قلبه وَلسَانه وجوارحه وسمته وَيذْهب طيشه وقوته وحدته.



وجماع ذَلِك أَنه سُــبْحَانَهُ يتعرَّف إِلَى العَبْد بِصِفَات إلهيته تارة وبصفــات ربوبيته تَارَة، فَيُوجب لَهُ شُــهُود صِفَات الإلهية الْمحبَّة الْخَاصَّة والشوق إِلَى لِقَائِه والأنس والفرح بِهِ وَالسُّرُور بخدمته والمنافســة فِي قُربه والتودُّد إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ واللهج بِذكرِهِ والفرار من الْخلق إِلَيْهِ، وَيصير هُوَ وَحده همه دون مَا ســواهُ، وَيُوجب لَهُ شُــهُود صِفَات الربوبية التَّوَكُّل عَلَيْهِ والافتقار إِلَيْهِ والاستعانة بِهِ والذُّل والخضوع والانكسار لَهُ، وَكَمَال ذَلِك أَن يشْــهد ربوبيته فِي إلهيته وإلهيته فِي ربوبيتــه وحمده فِي ملكه



وعزه فِي عَفوه وحكمته فِــي قَضَائِهِ وَقــدره وَنعمته فِي بلائه وعطاءه فِي مَنعه وبره ولطفه وإحســانه وَرَحمتــه فِي قيوميته وعذله فِــي انتقامه وجوده وَكَرمه فِي مغفرته وســتره وتجاوزه وَيشْــهد حكمته وَنعمته فِي أمره وَنَهْيه وعزه فِي رِضَاهُ وغضبه وحلمه فِي إمهاله وَكَرمه فِي إقباله وغناه فِي إعراضه.

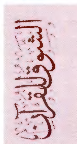
وَأَنتَ إِذا تدبَّرتَ الْقُرْآنَ وأجرته من التحريف وَأَن تقضي عَلَيْهِ بآراء الْمُتَكَلِّمين وأفكار المتكلفين أشهدك ملكًا قيومًا فَوق سماواته على عَرْشه يدبر أَمر عباده يَأْمر وَيُنْهِي وَيُرْسل الرُّسُل وَينزل الْكتب ويرضى ويغضب ويثيــب ويعاقــب وَيُعْطِي وَيمْنَــع ويعز ويذل ويخفض وَيرْفَع يرى مِن فَوق ســبع وَيسمع وَيعلم السِّرّ وَالْعَلَانِيَة فعَّال لما يُرِيد مَوْصُوف بِــكُلِّ كَمَال منزه عَن كلِّ عيب، لَا تتحرَّك ذرَّة فَمَا فَوْقهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تسْقط ورقة إِلَّا بعِلْمِهِ، وَلَا يشفع زهد عِنْده إِلَّا بِإِذْنِهِ، لَيْسَ لِعِبَادِهِ من دونه ولي وَلَا شَفِيعٌ»[١].

بهذه المنهجية لا بُدَّ للقرآن أن يُحدث لك هزةً في القلب؛ فتتأثر المشاعر والفكر والوجدان، ثم يقشعر الجلد والقلب، ثم يلين الجلد والأعضاء والجوارح للانقياد لأوامر القرآن ونواهيه، فما استطاعت عليه فَعَلَتْهُ، وما لا استَغفَرت ربها منه.



---

(١) الفوائد لابن القيم، (٦٩) وما بعدها.



القرآن عمران البيوت:

بيَّنت السُّنة النبوية شأن البيوت التي يُقرأ فيها القرآنُ، فقد روى مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»[1]، وفيه أن القرآن حياةٌ للبيوت، والبيت الخالي عن القرآن شبيهٌ بالمقابر لا حياة فيها، والقرآن سمَّاه الله روحًا كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، كما قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْبَيْتُ الَّذِي لَا يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ كَمَثَلِ الْبَيْتِ الْخَرِبِ الَّذِي لَا عَامِرَ لَهُ»[2].

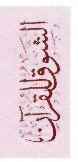


ومقصود القراءة في البيوت هي قراءة القرآن بتأمُّل وتدبُّر وترتيل، وحينما قَصَّرنا في قراءة القرآن تَعَبُّدًا استبدلنا ذلك بالقراءة المسجلة من خلال الوسائل المعاصرة، مع أن قراءة آية واحدة تُقرأ في البيت مع مدارسة أهل البيت لها أفضل بكثيرٍ من ختم القرآن عن طريق التسجيل.

وخروج الشياطين من البيت الذي يُقرأ فيه القرآن علامةٌ على دخول الملائكة إليه، فإنَّ الملائكة على الضد من

(١) صحيح مسلم، (٧٨٠).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، (٣٠٦٤٥)، وسنده صحيح موقوف.



الشياطين، فإذا دخلت الملائكة مكانًا زاد خيره وعمَّ طمأنينته، ومن آثار ذلك هدوء البيت وقلة الغضب وتمام السكن القلبي، وقد جاء عن ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: «البيت إذا تُلي فيه كتاب الله اتسع بأهله، وكثُر خيره، وحضرته الملائكة، وخرجت منه الشياطين»[1]. وعلى هذا؛ فالنور يعمُّ البيت الذي يُقرأ فيه القرآن، حتى يكون البيت في الأرض كالكوكب الدُّرِي في السَّماء، واختلاف أنوار البيوت على قدر قراءتها للقرآن، هذا فعل القرآن في البيوت وفعله في الصَّدر أشد من ذلك، فالصَّدر الذي حوى القرآن لا يقربه شيطان، فإنْ اقترب احترق.



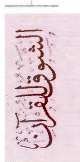
وقد حافظ السَّلف على ورد ثابت للقرآن في بيوتهم، فقد كانت أُمُّنا عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تقرأ حزبها في بيتها وهي مضطجعة على فراشها، ووكيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان لا ينام حتى يقرأ جزءه من كلِّ ليلة ثلث القرآن، ثم يقوم في آخر الليل، فيقرأ المفصل، ثم يجلس[2].

ومن أعجب مَن ورد عنهم قراءة القرآن في البيوت ما جاء عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فقد سألوا نافعًا: ما كان يصنع ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في منزله؟ قال: «لا تطيقونه؛ الوضوء لكلِّ صلاة، والمصحف

---

(١) المصدر السابق، (٣٠٦٥٠)، وهو صحيح موقوف.

(٢) سير أعلام النبلاء، (٩/ ١٤٨).



فيما بينهما»[1]، ولأجل أن تتخيَّل هذا البرنامج؛ فهو أشبه برجل مسجون في بيته ومع مصحفه، فلا يخرج إلا للصلاة أو الجهاد أو الفتيا، فما أعظمه من برنامج يومي!! وما أشـد صبره رضي الله عنه!! إنَّ أحدنا إذا بكَّر للجمعة فقرأ عدة أجزاء ليأتيه شعورٌ أنه قضى ما عليه من حقٍّ قرآني في هـذا اليوم! والمتأمل في حالنا اليوم يجد أن قراءة القرآن في البيوت بـدأت تندثر، واكتفينا ببعض التسجيلات الصوتية للقرآن.

القرآن يصحِّح التصورات:

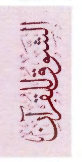


مدار كيد الشـيطان للإنسـان يكون في محورين: التصور والإرادة، وهما أصل قول القلب وعمله، فقد يفسـد الشيطان تصورات العبد، وقد يفسد إرادته وهَمَّه وعمله.

وعلى هذا؛ فما الذي يصنع تصور الإنسـان المسـلم في زماننا المعاصر؟

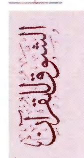
بيئتـه وتربيته ودراسـته وحياته وأهلـه ومحيطه وصحبته وما يسـمعه وما يراه.. كلُّ ذلك يصنع تصورات المسـلم في زماننا، أي أن هذه الأمـور وغيرها تصنع تصورك عن العبودية لله والتوكل والإخلاص والتقوى والخشـوع والخشية، بل هذه

(١) أخرجه ابن سعد في (الطبقات)، (٤/ ١٧٠)، ورجاله ثقات.



الأمور تصنع تصورك عن أسماء الله وصفاته وأفعاله، فأيُّ خلل في أحد هذه الأمور سيتنقل الخلل معه إلى التصور وبالتالي إلى الإرادة والفعل، ويا ليت أن ذلك يصاحبه تصحيح واجتهاد في المعرفة الشرعية للتصور الصحيح؟ بل يعيش البعض طوال حياته وهو يزداد من التصورات غير الصحيحة، أرأيتم خطورة الأمر في صناعة التصورات؟!

ولنأخذ مثالاً في أول كلمة في القرآن: الحمد، فمَن الذي يصنع تصور الحمد في تصوراتنا؟ بيئتنا وعاداتنا وصحبتنا وحياتنا الوظيفية والاجتماعية صنعت تصورًا لنا عن الحمد والتحميد، والقرآن يصحِّح التصور تجاه الحمد، فلا يُحمد ولا يستحق الحمد إلا الله لصيغة الحصر (الحمد لله)، فالله هو المحمود وهو الحميد، وكل من حمدناه وشكرناه فلْنَشكُره لأن الله أمرنا بذلك، فألسنتنا تلهج بالحمد وقلوبنا متعلقة بالله؛ لأنه الخالق للشيء المحمود، وهو الذي شاءه وقدره وأوجده ﷻ، فالعبد يأكل اللقمة فيحمد الله عليها، ويستيقظ من نومه ويحمد الله، ويحمد الله في صلاته وبعد ركوعه وفي الأذكار بعد صلاته، فإذا كان تصوره للحمد شرعيًّا من خلال القرآن فسيحمد في السَّراء والضَّراء حمدًا يليق بالله، فإذا انصبغ بذلك فسيجعل أكثر دعائه ثناءً على الله، والله أهل الثناء والمجد، فيا تُرى مثل هذا



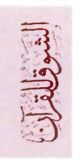
العبد كيف سيكون حمده إذا رفع رأسه من الركوع فقال: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْتَ، مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ؟!

وأيضًا كيف سيكون حمده إذا أصابته ضراء من نقص مال أو نفس أو أذى؟! مثل هذا الحامد الذي صحح القرآن تصوره عن الحمد هل سيجزع ويسخط؟! لن يكون ذلك؛ لأن آية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] تدافع عن صاحبها حينما تغزو الشياطين قلبه.



إنَّ الحامد الذي صحَّح القرآن تصوره لن يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله؛ لأنه يعلم أن المعطي المستحق للحمد هو الله، فلم يأتِ للنَّاس الذي جاءهم من فضل بقدراتهم وإنما بفضل ربهم وحده.. فكيف إذا تتبع قارئ القرآن الحمد في القرآن؛ فكم من التصور الصَّحيح سيحدث لديه، وأيضًا الحامد على المتربي على التصور الصحيح للحمد من خلال القرآن يشكر الناس شكرًا يليق بما بذلوه من عمل إلا أن قلبه متعلقٌ بالله ملتفتٌ إليه.

وانظر كذلك لتصحيح القرآن لمفهوم السَّعادة والطمأنينة؛ فمَن تأمل قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]؛ فليست الطمأنينة والسَّعادة متعلقة بالظروف إنما



متعلقة بمعرفة العبد لربه وتعلقه به ومحبته له وإقباله عليه، فإنْ كانت الظروف الحياتية متهيأة وهي السَّراء؛ فإنه سيستغل تلك الظروف لزيادة الإقبال على الله، وإنْ لم تكن متهيأة؛ فإنه سيستغل شدة ظروفه وهي الضَّراء لتوصله إلى الله، فللسَّراء عبودية وللضراء عبودية، والمؤمن لا يبالي على أيهما يركب ليصل إلى ربه.

وقُلْ مثل هذا في تصحيح التصور للتوكل والتقوى والزهد والورع والعلم، وأصل ذلك وأساسه وهو تصحيح التصور عن الإيمان بالله.. ألا يحتاج ذلك إلى مدارسة للقرآن وتأنٍ وتأمل في بعض آيات منه على مدى أشهر؟! ولهذا كان الصَّحابة رضي الله عنهم يتدارسون عشر آيات نزلت ويمكثون فيها الشَّهر والشَّهرين.

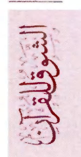


فاتضح أن تصحيح التصور يحتاج إلى مهتمين:

الأولى: هدم التصورات السَّابقة التي بناها العبد من خلال بيئته ومحيطه وغير ذلك من أدوات بناء التصور.

والأخرى: بناء تصورات شرعية صحيحة من خلال فهم معاني آيات القرآن.. اللهم أعنا على فهم كلامك والعمل.

هذا كلُّه في صدِّ مكر الشَّيطان فيما يخص التصور، ويبقى أمام المؤمن صدِّ المكر الثاني فيما يخص الإرادة والعمل،



وأســاس ذلك المجاهدة والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ولكي يسهل الأمر علينا أسأل هذا السُّــؤال[1]: أيُّهما أشد انحرافًا: تصورات الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قبل إسلامهم أم تصوراتنا نحن الآن؟!

لا شكَّ أن تصوراتهم التي بنتها لهم الجاهلية المظلمة أشد انحرافًا من تصوراتنا التي دخلها خللٌ، ومع هذا غيَّرهم القرآن في فترة قليلة، والسِّــرُّ في ذلك عظمة وقوة القرآن، فإذا أقبلت على القرآن أعطاك القرآن من كنوزه، فــإذا كان القرآن صحَّح تصورات الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ التــي بنتها الجاهلية بــكلِّ تفاصيلها؛ فكيف بتصورات فيها بعض الخلل؟!



إنَّ علينا جميعًا أن نحسَّ بخطورةِ بُعد تصوراتنا عن القرآن؛ إذ قد يفعل العبد أفعالاً يظنها من الإيمان وهي تناقضه، ويتعبد لله بما لا يحبه الله، وبما ليس من شــرعه ودينه، وهذا ما عليه حال بعض أهل الكتاب من قبلنا، كما قال الله عنهم: ﴿ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ٢٧]، وحتى ندرك خطورة الأمر انظر لتصوراتنا عن الحبِّ والمحبة، وكيف أن هذا المعنى ـ الشريف العزيز الذي يربط المؤمن بربه

(١) غربة القرآن، ص(٢٤).



بـرباط قوي وثيق ـ انحرف عن مساره وعبث فيه الشيطان أيما عبث؟! مع أنه من أجلِّ نعم الله أن الله رزق العبد حبًّا في قلبه، وقد جعـل هذا الحب القلبـي أمانة عرضت على السـموات والأرض فأبين أن يحملنها، فماذا فعلنا بهذه الأمانة؟!

تصوُّرُ القرآنِ عن الحبِّ عجيبٌ جدًّا، فمَن تتبع آيات الحبِّ وأسـماء الله وصفاته عرف أن حبَّ الله هو أساس هذا الوجود، فلا يُحـب إلا الله ومـا والاه وما يُحبـه الله، وإذا كانت أعمال القلوب كلها تدفع العبد للعبـادة لله؛ فإنَّ الحبَّ يجذب القلب جذبًا إلى الله، ولهذا قال علماء السـلوك: علـى قدر محبة الله تكون درجة الأعمـال القلبية الأخرى، فمتـى ما قويت المحبة تحرك الخوف والرجاء والتوكل واليقين وغيرها، فنلاحظ أن قوة هذه الأعمال على قدر قوة المحبة، ولكي نعلم فساد التصور في المحبة اليوم فانظر إلـى محبوباتنا وتنوعها وسُـبل بناء الحب عندنا، وعلى أيِّ أساس نُحب؟! هل تجد فيها أن سبب بناء حبنا هو: أن هذا مراد الله الشـرعي ومحبوبه؟! أليس من فساد تصور الحب أننا بدأنا نُحب ما يبغضه الله؟! هل مثل هذا يدلُّ على بنائنا الحب من خلال آيات المحبة في القرآن؟! وحينما أفسد الشيطان تصـور الحب قـال الله للنـاس: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].





ومن أكبر القضايا في بناء التصور حسب آيات القرآن تصورنا عن إرادة الإنسان وقوتها، وتحكم العبد فيها، وجعلها تحت شرع الله وسلطانه، وتعلق ذلك بعمل الجوارح والهمِّ القلبي، وكيف تتصل هذه الإرادة بالله، وعلاقة الإرادة بأركان الإسلام الخمسة، وكيف تُبنَى؟ ومعرفة جواذب تلك الإرادة وموانعها، وتجريد الإرادة عن العوائد والعوائق، فانظر لقول الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦]، فبيَّنت الآيات أن مَن أراد الدُّنيا؛ فليس له في الآخرة من نصيب، فكيف بمَن أراد الدُّنيا بعمل الآخرة كما هو واقع بعض المسلمين اليوم، وقد بلغ مكر الشيطان بالنَّاس في زماننا بأن جعل المحرك لكثير من الأذكار والصدقات وصلة الأرحام هو طلب حظوظ دنيوية محضة، وهذا من طلب الدُّنيا بعمل الآخرة، وهذا فساد في التصور للإرادة، وانظر كيف عرَّض نفسه للوعيد الشديد العظيم بسبب فساد التصور.



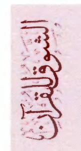
ومن العجب أن القرآن يصحِّح التصور عن البر ويبطل عادة جاهلية غريبة، وقد لا تكون منتشرة بين الناس تلك الفترة



إلا أنها موجــودة ولا بُدَّ، وهي أن الحــاج إذا رجع من الحج لا يدخل البيت من بابه وإنما من ظهره، ولا شكَّ أنها عادة لها وجود في فترة معينة، لكن هل يعقل أن القرآن يتكلَّم عن عادة ليست مشهورة بين العرب وينزل بشأنها قرآنًا؟! حيث قال الله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].



فيأتي القرآن ويصحِّح تصــور الذهن عن البر، ويربطه البر بالتقوى، فيتصحح التصور عند قارئ القرآن بأن العادات ليس لها علاقــة بالبر إنما البــر هو تقوى الله ومراقبته واســتحضار اطلاعه وتغير الســلوك تبعًا لذلك، وليس عادة يقوم بها البدن، وعلى هذا؛ فكم من عادةٍ فــي مجتمعه تربط بالإيمان والتقوى تســقط في تلك اللحظة؟! والآية تلمح إلى أن النفس قد تعبِّر عما فــي داخلها من تأنيــب ضميــر يريد الوصــول للتقوى والدرجات العالية من الإيمان، يعبِّر عن ذلك بمظهر أو عادة أو طريقة معينــة يخترعها البعــض أو هي من إيحاء الشــياطين، فصحَّح القــرآن التصور عن التقوى والإيمــان بأنه ما وقر في القلب وظهر على الجوارح مما شرعه الإسلام دون غيره، فإذا تدارســنا حول هذه الآية وطبَّقناها على واقعنا، فكم من عادة



عند البعض هــرب فيها من الاعتراف بنقص تقــواه إلى ادِّعاء الكمال عن طريق مظهر خارجي يشبع به تأنيب ضميره، ولهذا قد ينشغل البعض بالظاهر ويترك الباطن.

وعلى هذا ينبغي أن تؤخذ قضايا الزمن المعاصر من الحرية واللذة وغيرها مــن خلال نصوص الوحي وآيــات القرآن بعد فهمها وإدراك معناها والتدارس حولها، ولا تنسَ وأنت تصحِّح التصور في قضية معينة أن ذلك التصور الصحيح لن تجده في تلك الآية فقط بل ستجد القرآن ناطقًا به في كلِّ آياته وقصصه، وهذا تشــابه القرآن المقصود في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣]، فربط البر بالتقوى وإنْ كان عمدته تلك الآية إلا أن القرآن كلَّه شاهدٌ عليه.



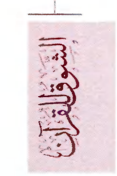
ومع هــذا الوضــوح إلا أن الشــيطان يســعى لإفســاد التصورات، فانظر إلى إفساده لأوضح قضية تكلَّم عنها القرآن وهي الإيمان حتــى اختلفت الأهواء فيه!! وكذلك أســماء الله وصفاته حتى تفرق الناس فيه، وتوحيــد الله الذي أُنزل القرآن لأجله، وأعمــال القلوب حتى أنكرها البعــض، وهذا من كيد عــدو الله ومكــره، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النــور: ٤٦].. فاترك الآن القرآن يجدِّد تصوراتك واســتغفر الله عما مضى، والله هو الغفور الرحيم، فكم نســبة ما سيصحِّحه

القرآن لنا أمام ما بُنِيَ لنا من تصورات بسـبب البيئة والمحيط وتربيتنـا وغيرهـا، أقول ذلك لأبيِّـن أن الأمر كبيـر إلا على الخاشعين.

ولنعلـم أن تصحيح التصـور هو الخطـوة الأولى وتبقى الإرادة والعزيمـة بعـد ذلك، ولا تـدع الشـيطان يصنع لك تصوراتك، أو يسمح بتصحيح التصور ويصدك عن العمل، فكم نوهم أنفسنا أننا مصيبون في أعمال القلوب مثلاً ومحققون لها، ومكملون للإيمان وعلى طريق العلم سائرون، فإذا جاء صوتٌ يصحِّح لنا نادتنا أنفسـنا أننا كذلك وأننا صالحون مصلحون، أليس هذا يشبه قول الله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١١]؟







القسم الرابع

القرآن وحملته

مَنْ هُم أهل القرآن وحملته؟

من الأحاديث التي يطرب لها قلب المؤمن قوله ﷺ: «**إِنَّ للهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ**» قَالُوا: يَا رَسُـولَ اللهِ، مَـنْ هُمْ؟ قَالَ: «**هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ**»[1]، فمَن هُمْ أهل الله وخاصَّتُهُ؟ قوله: (**أَهْلِينَ**) أي: أهل، والأهل هُم الأولياء والأحباب، فأهلُ القرآن هُم المُختَصُّون به[2].



يقول ابـن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض المناقشـة بيـن أفضلية الترتيل مع قلة القراءة أم السرعة مع مثرة القراءة، قال: «ولهذا كان أهل القرآن هُم العالمون به، والعاملـون بما فيه، وإنْ لم يحفظوه عن ظهر قلب، وأما مَـن حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه، فليس من أهله وإنْ أقام حروفه إقامة السَّهم»[3].

---

(١) أخرجه أحمـد، (١٢٣٠٤)، وابن ماجـة في سـننه، (٢١٥)، وصحَّحه الألباني في (صحيح ابن ماجة)، (١٧٩).

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير، (١/ ٣٣٦).

(٣) زاد المعاد، (١/ ٣٢٧).



ويوضِّح ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنى حملة القرآن فيقول: «هُم العالمون بأحكامه وحلاله وحرامه والعاملون به»[1].

هكذا كان الأمر في العهود الأولى حتى تغيَّر بعد ذلك إلى أن أصبح حامل القرآن لا يعلم معنى ما قرأ، وإذا قرأ قصَّر في العمل بما علم، ولو أن البعض انشغل بالحفظ استدراكًا لزمن الحفظ في الصغر، ثم انشغل بشكل أكبر على فهم معانيه، وجاهد نفسه على العمل به لكان ذلك مقبولاً، ومما تراعى فيه المصالح والمنافع؛ لكننا نرى أنفسنا ـ غفر الله لنا ـ أننا قد ننشغل بالحفظ، فإذا حفظنا انشغلنا بالمراجعة والضبط، ثم تمر السنوات ولم نتعلَّم معاني كتاب الله، وما دام أن جزء من معاني القرآن مفقودةٌ؛ فلا بُدَّ أن يتخلف العمل بما في القرآن.



ويبيِّن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حقيقة تلاوة القرآن، ومن خلالها يصل لمعنى أهل الله، فيقول: «فحقيقةُ التِّلَاوَة فِي هَذِهِ الْمَوَاضِع هِيَ التِّلَاوَة الْمُطلقَة التَّامَّة وَهِي تِلَاوَة اللَّفْظ وَالْمعْنَى، فتلاوة اللَّفْظ جُزْء مُسَمَّى التِّلَاوَة الْمُطلقَة، وَحَقِيقَة اللَّفْظ إِنَّمَا هِيَ الِاتِّبَاع... وَهَذِهِ التِّلَاوَة وَسِيلَة وَطَرِيقَة، وَالْمَقْصُود التِّلَاوَة الْحَقِيقِيَّة، وَهِي تِلَاوَة الْمَعْنى واتباعه تَصْدِيقًا بِخَبَرِهِ وائتمارًا

(١) التذكار في فضل الأذكار، ص(١٩٦).



بأَمْره وانتهـــاءً بنهيه حَيْثُ مَا قادك انقدت مَعَــه، فتلاوة الْقُرْآن تتنَاوَل تِلَاوَة لَفظــه وَمَعْنَاهُ، وتلاوة الْمَعْنى أشـــرف من مُجَرّد تِلَاوَة اللَّفْظ، وَأَهْلهَا هُم أهل الْقُرْآن الَّذين لَهُم الثَّنَاء فِي الدُّنْيَا والآخرة؛ فَإِنَّهُم أهل تِلَاوَة ومتابعة حَقًّا»[1].

ومما يســـاعد في فهم معنى أهل القرآن قـــول النبي ﷺ: «**أَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ**»[2]، فإنَّ الوتر غير واجب وجوبًا شرعيًّا، ومع هذا أمر به أهل القرآن، مما يدلُّ على أن أهل القرآن أهلُ عملٍ، وتحفيزهم بندائهم بأهل القرآن هو تحريك للهمم، كأنه قال: إنْ كنتم أهل القرآن فلا تتركوا الوتر.

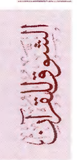


فالضابط في أهلية القرآن هو العمل، ومع هذا لن يستطيع أحدٌ أن يحصي كلَّ العمل بالقرآن كلِّه، كما قال الله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمــل: ٢٠]، فلو أحصينا القـــرآن كل الإحصاء لراقبنـــا ألفاظنا ونظراتنـــا وخطراتنا وخطواتنـــا وكل صغيرة وكبيرة من أمرنا، ولم تتســـلل الغفلة إلينا، وأصبحنا نذكر الله فلا ننسى، ونشـــكر الله فلا نكفر، وهذا ما لا طاقة لنا به مع وجود الأعداء من النفس والهوى والشيطان، فإذا كان كذلك

---

(١) مفتاح دار السعادة، (١/ ٤٢).

(٢) أخرجه الترمذي، (٤٣٥)، وقال: «حديث حسن».



فالمقصود بالعمل بالقرآن هو الاجتهاد في تطبيق أوامره، والاستغفار عما نعجز عنه، وعلى هذا يفهم قول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِهَذَا الْقُرْآنِ مَنِ اتَّبَعَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَقْرَؤُهُ»[1]، فجعل أولى الناس بالقرآن مَن يعمل به وإنْ كان مُقِلاً من القراءة، ليس كحال كثير من المسلمين في قراءتهم للقرآن.

أصحاب القرآن:

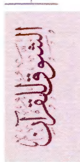


مصطلح آخر ورد في السُّنة النبوية يفيدنا في علاقتنا بالقرآن، وهو مصطلح صحبة القرآن، كما ورد في قول النبي ﷺ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ**»[2]، فهناك ـ إذن ـ قارئ للقرآن، وهناك صاحب له، وكلمة صاحب اسم فاعل تدلُّ على المبالغة في قراءة القرآن، فالصُّحبة لا تكون إلا بعد طول عِشرة، ومما دلَّ عليه الحديث أن صحبة القرآن يمتد أثرها إلى الآخرة، كما أن من دلائل الحديث أن صحبة القرآن تنفع في أشد الأوقات حرجًا وهو الشفاعة يوم القيامة.

---

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام، ص(١٣٤).

(٢) المصدر السابق، ص(١٣٥).



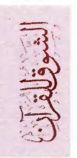
إنَّ ما يجده المؤمن من علاقة محبة بينه وبين بعض سور القرآن أو آياته، هي رسالة من ربه إلى زيادة العلاقة مع السُّور والآيات الأخرى، ليذوق الأنس كما ذاقه مع محبوبته من السُّور.

وأساس صحبة القرآن هو خشية الله، فصاحب القرآن هو أخشاهم لله، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قِيلَ لَهُ: أَيُّ النَّاسِ أَحْسَنُ قِرَاءَةً؟ قَالَ: «الَّذِي إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَتَهُ رَأَيْت أَنَّهُ يَخْشَى اللهَ عز وجل»(١)، وهذا دليلٌ على أن القرآن وصل تأثيره إلى جوف القارئ، فظهر خشوع باطنه على صوت ظاهره، والجوارح هي أوعية لما وَقَرَ في القلب، كما قال الله سبحانه وتعالى عن مشية المؤمنين عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، فسكينة قلوبهم ظهرت على خطوات أرجلهم من غير تَكَلُّفٍ ولا تَصَنُّع.



ولعل ضابط صحبة القرآن هو تغيُّر السُّلوك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ولهذا قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «فَلا يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَحْتَدَّ مَعَ مَنْ يَحْتَدُّ، وَلا يَجْهَلُ مَعَ مَنْ يَجْهَلُ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ فِي

(١) مختصر قيام الليل، (١٥٣)، وحسَّنه الحافظ ابن حجر في (نتائج الأفكار).



جَوْفِهِ»[1]، فانظرْ كيف جعل صاحب القــرآن وحامله لا بُدَّ أن يُغيِّر سلوكه وغضبه، فلا يغضبه ما يُغضب الناس.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «فلا ينبغي لحامل القرآن أن يلعــبَ مع مَن يلعــبُ، ولا يرفثُ مــع مَن يرفثُ، ولا يتبطَّلُ مع مَن يتبطَّلُ، ولا يجهلُ مع مَن يجهلُ»[2].

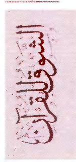
الشَّيطان يحرص على عدم تكرار الخطأ:

ليس الشَّــيطان بمعزل عنَّــا، كما تواتر ذكــره في الكتاب والسُّنة، ولن ينسى الشَّيطان وحزبه جيل الصحابة الكِرام رضي الله عنهم، وكيف آمنوا بالله، وحقَّقــوا المراتب العليا فــي الإيمان، ولن ينســى هزائمه المتتابعة علــى أيديهم، فهزمــوا خيله ورجله، وافشلوا مشاريعه، ودحروه حتى أصبح أغيظ ما يكون وأحقره، والشَّيطان يعلم ســر أولئك القوم وهو أنهم فهموا كلام ربهم وعملوا بما فيه، وليس لهم سر آخر، فلم يكونوا أضخم أبدانًا ولا أقوى سلاحًا من غيرهم، ولهذا فالشيطان يعلم أن المؤمنين متى ما أقبلوا على كلام ربهم وفهموه وجاهدوا أنفســهم على العمل بما فيه؛ فإنَّ النتيجة أن القرآن سيعمل أثره فيهم كما أثر



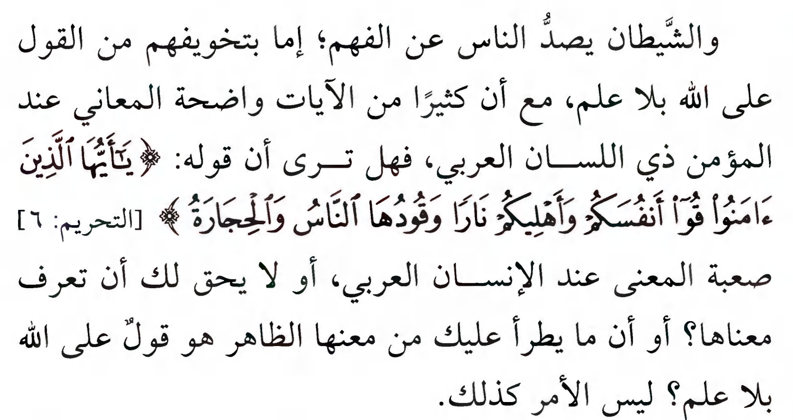
(١) أخلاق حملة القرآن للآجري، ص(١٦).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١١١).



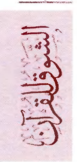
فيمن قبلهم، ولهذا فهو يصد الناس عن فهم القرآن بكلِّ وسيلة، وإذا فهموه لكونهم عربًا؛ فإنه يعمل على صدهم عن العمل به، وله بكلِّ حيلة خطوات.. فيبقى العبد المؤمن يتلو كلام ربه ويكرِّره ولا يفهم معناه، ولا يريد أن يفهم أيضًا، فليس الشأن في غياب معنى حرف من القرآن؛ فهذا يحدث كما حدث لأبي بكر رضي الله عنه في حرف (أبا)، إنما الأمر أن سورة كاملة يقرأها المؤمن لا يلقي لها بالاً، ولا يعي أوامرها ونواهيها، لدرجة أننا نرتكب بعض المنهيات التي نقرأ النهي عنها أثناء قراءتنا للقرآن، ونتجاوز ذلك للآية التي تليها وكأن شيئًا لم يكن.





والشَّيطان يصدُّ الناس عن الفهم؛ إما بتخويفهم من القول على الله بلا علم، مع أن كثيرًا من الآيات واضحة المعاني عند المؤمن ذي اللسان العربي، فهل ترى أن قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] صعبة المعنى عند الإنسان العربي، أو لا يحق لك أن تعرف معناها؟ أو أن ما يطرأ عليك من معنها الظاهر هو قولٌ على الله بلا علم؟ ليس الأمر كذلك.

بل معاني القرآن ذات المعنى الظاهر التي يعرفها العرب من كلامهم لا حرج أن يفهم الإنسان معناها من خلال لغته العربية التي تفضل الله به عليها، وحينما قسَّم ابن عباس رضي الله عنهما



التفسير جعل منه قسمًا هو: ما تعرفه العرب من كلامها[1]، فليكن فهمك للتفسير من خلال ما تعرفه من كلام العرب.

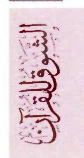
واللُّغة العربية وإنْ تغيَّرت بعض كلماتها إلا أن جوهرها لم يتغيَّر ولم يتبدَّل، وأغلب كلمات العرب على ما كانت عليه من معاني، بل إنَّ هذا هو سر إعجاز القرآن، فإعجازه يكمن في كونه سهل الفهم مع تقادم الزمن، حتى تكاد أن تقول: إنَّ بعض آياته أُنزلت في عصرنا، ولو قارنت بين آيات القرآن وبين بعض أبيات أهل الجاهلية التي نزلت معه في نفس الفترة لاحتجنا لمختصين لشرح غريبها، مع اختلافهم أيضًا في معاني الألفاظ، وليس القرآن كذلك.



والعجيب حقًّا أن كلَّ كلام يقرأه الإنسان مطلوبٌ منه فهمُهُ، ويَحِقُّ له أن يفكِّر فيما يحتويه من معاني ويتفاعل معها، إلا إذا قرأ المؤمن القرآن لا يطرأ عليه ذلك، أليس هذا من أعجب حيل إبليس علينا؟! ثم يُلبِّس ذلك بلباس شرعي بالخوف من الإقدام على أن يقول في معاني كتاب الله بلا علم، ثم ليت هذا الشعور يحمله على أن يبحث عن المعنى من كلام المفسرين؛ لئلا يقول على الله بلا علم، لكنك تجد الشيطان للمرة الأخرى يثبِّط القارئ عن طلب المعنى، فلا هو تركه

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، (٤/ ٢١٦).



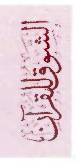
يفهمه بحكم ما وهبه الله من العربية، ولا هو تركه يطلب العلم، فهو يقطع ما أمر الله به أن يوصل.

وقد يكون من الوهم أن ينشغل المؤمن بالحفظ والقراءة حاليًا ثم يؤجِّل فهمه لمعاني القرآن لمرحلة عمرية آتية، فيتفاجأ أن السَّنوات تطوى، والآيات تخاطبه بما هو فيه، وتوجهه وتهديه، لكنه وضع حجاب العمر بينه وبين فهم القرآن.

ومَن صدِّهِ عن فهم القرآن ما يورثه الشيطان من أمراض القلب كالشرك والذنوب والخطايا؛ فهي أعظم حجاب يمنع فهم القرآن، وعلاج ذلك بدوام الاستغفار ومجاهدة النفس، وتحقيق التوبة والإنابة إلى الله.



فإنْ انتصر المؤمن وفَهِمَ كلام ربه، أجلبَ عليه الشيطان حيلةَ الصَّد عن العمل بالقرآن؛ لكون آياته عامة لا تفيد الخصوص، أو لوجود الاختلاف بين المفسرين، ولم يكن المفسرون يختلفون لإبطال العمل بالآية، وأكثر اختلافاتهم هي من قبيل اختلاف التنوع، ولا يمكن لنا أن نتتبع حيل الشيطان للصد عن القرآن، لكن بالتأكيد له في كلِّ يوم حيلة؛ لأن القرآن أثقل الأمور على الشيطان، فهو كلام الله، وهذا أحد أسرار كوننا مأمورين بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند قراءة



القرآن، ولم نؤمر بالاستعاذة عند الأكل والشرب مثلاً، وذلك لأن الشيطان يحضر عند المؤمن قبل قراءته للقرآن يريد منعه، فإنْ غلبه وإلا حاول أن يفسد عليه قراءته، فإنْ غلبه وإلا صده وأنساه العمل، فإنْ غلبه وإلا أوقعه في نواقض ومحبطات العمل، وهكذا لا يزال الشيطان يوقعه في مكره وحبائله.. فلن يسمح الشيطان ـ هو العاجز ـ لقلب المؤمن بفهم كلام ربه والعمل به؛ لئلا يأتيه عبدٌ جمع بين العلم والعمل، وحقَّق مراتب الدِّين؛ فيكون أثقل عليه من جبال الدُّنيا كلها.



الشيطان يحضر عند قراءة القرآن[1]:

تفرحُ الملائكةُ بالقرآن وتحبُّ سماعه؛ لأنه كلام ربها وهي أعلم بصفاته وأشد تعظيمًا له، فكلُّ ما يتعلَّق بمولاها فهي أكثر به رغبةً، وقد تنزلت الملائكة لقراءة أُسيد بن حضير[2]، ومع الملائكة تتنزل السكينة[3]، كما في حديث البراء رضي الله عنه قال: «قَرَأَ رَجُلٌ الْكَهْفَ، وَفِي الدَّارِ دَابَّةٌ فَجَعَلَتْ تَنْفِرُ، فَنَظَرَ فَإِذَا ضَبَابَةٌ أَوْ

(١) مرجع هذا المبحث فصل عقده ابن القيم رحمه الله في كتابه (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان)، (١/ ٩٢) وما بعدها.
(٢) حديثه في صحيح مسلم، (٧٩٦).
(٣) صحيح مسلم، (٧٩٥).



سَحَابَةٌ قَدْ غَشِيَتْهُ، قَالَ: فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «اقْرَأْ فُلَانُ، فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ عِنْدَ الْقُرْآنِ، أَوْ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ». فيجتمع عند قراءة القرآن المؤمن والملائكة النورانيون، وفي قلب المؤمن نور الإيمان بكلام ربه، والقرآن نور، والملائكة نورٌ، فاجتمع نورٌ على نور، ولهذا لا يثقل شيءٌ من العبادات على الشَّيطان وجنده كما تثقل عليهم قراءة القرآن، وهذا النور يؤذيهم فيجتمعون لإطفائه، فشُرع لنا الاستعاذة بالله من الشَّيطان الرَّجيم قبل قراءة القرآن، ثم شُرع لنا البسملة، كما قال: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

وقد ذكر العلَّامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عددًا من الأوجه في سبب الابتداء بالاستعاذة، وكلها أوجه رائعة إلا أني سأتوقف عند أحدها، فاقرأ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً، فكلما أحس بنبات الخير في القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله عَزَّ وَجَلَّ منه؛ لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن»(١).

ومضمون ما ذكره أن قارئ القرآن حينما يتلو كلام ربه، فإنَّ القرآن يقع على القلب كما يقع الماء على الأرض، فينبتُ

(١) إغاثة اللهفان، (١/ ٩٢).



أنواع النبــات، فكذلك القــرآن يقع على القلــب فيثمر أنواع المعارف، فآية تعرِّفه باسم من أسماء ربه، وآية تعرِّفه بصفة من صفات مــولاه، وآية تُشــهدُه وعود ربه التي تجلب البشــرى، وأخرى ترهبه مواعيد إلهه ذي الانتقــام، وهكذا بقية الآيات؛ فماذا يصنع الشيطان حيال ذلك؟!

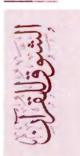
لن يقفَ الشَّــيطان مسلســل الأغلال بل يتسلط على هذه المعارف فيحرقها؛ لأن النَّار تحرق النبات فينقلب رمادًا، ولهذا شرع لنا الاســتعاذة قبل قراءة القرآن ليبقَ أثره باقيًا في القلب، فيجتهد الشــيطان على إحراق تلك المعارف بعد القراءة ما لم يتعاهدها المؤمن بالعمل والاجتهاد والاســتغفار، وقد لاحظ بعض العلماء هذا الوجه؛ فجعلوا الاســتعاذة تشرع بعد قراءة القرآن[١] حفاظًــا على ما أثمره القرآن من معــانٍ قلبية، ولكن السُّــنة قاضية بالاســتعاذة قبل القراءة تنظيفًا للقلــب وتطهيرًا ليســتقبل أفضل كلام، فالنور لا ينزل إلا علــى مكان لائق به، ومَن استعاذ قبل قراءة القرآن حُفظ من الشيطان أثناءها وبعدها.



وقراءة القرآن عمل لا يجتمع عليه الملائكة والشــياطين، فإنْ حضرت الشــياطين فإنما تحضر خلسةً ونزغًا، أما حضور الملائكة فحضور تَقَرُّب واقتراب وإنصات.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص، (٣/ ٢٤٨).



وأعجب ما يفعله الشيطان مع قارئ القرآن أنه يشوِّش عليه بعض الآيات، فيختم آية الرحمة بالعذاب، أو يجعل النار جزاء المتقين، والجنة جزاء للكافرين، فينتبه القارئ وقد خلط المعنى، وذلك من عمل الشيطان فيحسن طرده بالاستعاذة بالله منه، وأصل ذلك قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، فإذا كان هذا فعله من الرُّسل؛ فكيف بغيرهم؟[(١)].



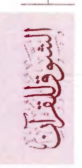
وفعل الشيطان في تشريد الذهن أعجب من تشويش اللسان؛ لأننا نسمع ونحس بألفاظنا ونغفل عن أذهاننا، ومن حضور الشيطان ما يحدث عند تثاؤب قارئ القرآن، ولهذا أُمر بالإمساك عن القراءة حال التثاؤب[(٢)].

وقد قال الله بعد آية الأمر بالاستعاذة: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩ ـ ١٠٠]، وهذه الآية تدلُّ على أن الاستعاذة ليس مجرد لفظ يقال قبل القراءة، إنما لها ارتباط بسلوكك اليومي وإيمانك وتحقيقك لأعمال القلوب،

---

(١) إغاثة اللهفان، (١/ ٩٣).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١١٩)، وأخلاق القرآن للآجري، ص(٧٤)، وسنن سعيد بن منصور، ص(٩٩)، وقال المحقق: «سنده صحيح».



فكلما كان الإيمان في حياتك أكمل كان حفظ الله لك أتمَّ، ولهذا ذُكر الإيمان والتوكل في الآية، وعلى هـذا مَن انتقص في توكله وإيمانه؛ فلا بُدَّ أن ينتقص في حفظ الله له من الشيطان.

والقصد بيان أن حضور الشيطان للقرآن الكريم يكون فيه إغفـال المؤمن عن فقه معانيـه وتزهيده فيها، وإشـباع رغبته النفسية بختم السورة أو الجزء.

ومداخل الشـيطان على المؤمن هي الشبهات والشهوات، ولا يغلق مداخلهما مثل القرآن، فالقرآن يثمر اليقين وبه علاج الشبهات، ويثمر الإيمان وبه علاج الشهوات.



القرآن يعيد علاقتنا بالملائكة

لابد أن يكـون هناك توازن بيـن كون الشـيء واجبًا في الإسلام وبين حضوره في الحياة، فالوفاء بالعهد وبر الوالدين من الواجبات، فإذا تأملت حياة الناس وجدت لهذين الواجبين حضورًا كبيرًا، وإذا كان الأمر مستحبًا كان أقل من ذلك، أما إذا كان ركنًا فيجب أن يكون حضوره وأهميته أشد وأعلى، فانظر الآن إلى ركنية الإيمان بالملائكة ووازنه بحضورهم في حياتنا وتصورنا! هل تجد بينهما تناسب؟!

قد نشـعر بأننا معزولون عـن الملائكة، وأنهـم عالم آخر يتعبدون لله بما شـرعه لهـم، إلا اللهم من وكَّلـه الله علينا ممَن

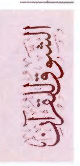


يكتب أعمالنا، هكذا يظن البعض! أو قد يظن البعض بأن علاقتنا بالوالدين ومَن حولنا أكثر من علاقتنا بالملائكة، وأشد فسادًا من هذا التصور من يظن عـدم حاجتنا للملائكة وإمكانية اسـتغنائنا عنهم، وهذا كله مبنيٌ على ضعف تصور حقيقة الإيمان بالملائكة.

لو كان الأمر بهذا التصور أو قريبًا منه لم يكن الإيمان بهم ركنًا من أركان الإيمان، مَن لم يحققه يخرج من دائرة الإيمان! ولِم ذكرهم الله بأكثر من ٨٨ موضعًا صريحًا باسمهم؟ وأحيانًا بأوصافهـم كالصافـات والزاجـرات والتاليـات والذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات والمرسلات والعاصفات والناشـرات والفارقات والملقيـات والنازعات والناشـطات والسابحات والسابقات والمدبرات.



ابتدأت علاقتنـا بالملائكة منذ سـجودهم لأبينا آدم عليه السلام حيث عظموا المخلوق الذي عظَّمـه الله، ورأوا في أبينا عليه السلام بديع صنع الله فخروا له سـاجدين، وقد كان أبونا عليه السلام جميلًا مهيبًا جسيمًا، طوله ستون ذراعًا في السـماء، وتستمر العلاقة بيننا حين نكون فـي أرحام أمهاتنا فيكتبـون أربع كلمات هي أرزاقنا وآجالنا وشـقاوتنا وسـعادتنا، وهـم الحفظة للمؤمن يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فيمشي المؤمن كهيئة الملِك



أمامه جنود ومن خلفه جنود، لا يســمحون بتســلط الشياطين عليه، لو كُشــف لنا البصر لرأينا ما بيننا وبين الســماء ملائكةً تصعد وتنزل تنفذ الأوامــر، ولرأينا ملائكة ملازمة للمؤمن في شــأنه كله، ولرأينا بعضهم يتلمس مجالس الذكر، وأعجب من ملائكــة الأرض ملائكةُ الســماء الذين أقســم الله بهم فقال: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ فأقسم بوقوفهم واستعدادهم وزجرهم، وكل هــذه الأعداد ما منهــم إلا مقام معلوم، فــإذا حضرت معارك المؤمنيــن حضــروا وأوحى الله لهــم ﴿أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ والمعية هنا تدل على كمال افتقار الملائكة لمعية الله، لئلا يظن المؤمن أنهم فاعلون مــن دون الله فيقع في عبادتهم ورجائهم مــن دون الله، وهم يبغضــون المجرمين والظالمين، ويحبون المؤمنين، ويحبــون التالين للقرآن، ويحبون ســماع القرآن، ويحضرون في صلاة الفجر لســماع القرآن، وإذا دخل الخطيب يوم الجمعة جلسوا يستمعون الذكر[1]، فهنيئًا للخطباء بهذا الجمع المشــهود، وليجتهــدوا في تجويــد قلوبهم أثناء الخطبة إذ الملائكة ترى النــور في القلوب. ومن الملائكة من يتفاعل مع قراءة القرآن فينزل من السماء إذا سمعها كما حصل



---

(١) أخرجه مسلم ٢٦٣٧.



في قصة أُسيد بن حضير[1]، فعلى معلمي القرآن أن يحتسبوا سماع الملائكة من حولهم ومحبتهم لعملهم.

إن السؤال القائل: ما مدى حضور الملائكة في حياتنا؟ يجب أن يتغير إلى سؤال آخر: كيف لنا أن نتصور الحياة بدون الملائكة؟

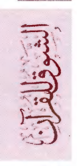
إن الزمن الذي تنتشر فيه الشياطين هو الزمن الذي يجب أن ينتشر فيه فقه الإيمان بالملائكة لأنهم أعداء الشياطين، وعلى قدر إيماننا بالملائكة يكون حفظ الله لنا من الشياطين.



همهم الملائكة متعلقة برعاية المؤمنين ونصرهم، وانظر إلى بعض المشاهد التي ذكرها القرآن لنا لنعيد العلاقة مع الملائكة من خلال القرآن، فاسمع قول الله وهو يصف لحظة سكرة الموت، اللحظة التي يصعب وصفها، إذ وصفها مبنيٌّ على الإحساس بها، حيث ينتاب العبد في تلك اللحظة شعوران لا يدري أيهما يعطيه تفكيره، خوف مما أمامه، وحزن على ما خلفه، والقلب يكاد يطيش بينهما، فكيف وهو يطالب أن يتذكر شهادة التوحيد فيقولها مؤقنًا من قلبه! أي قلب هذا؟ فيقول الله عن الملائكة وهي تراقب قلب المؤمن وترى ما به من المشاعر:

---

(١) أخرجها مسلم ٧٩٦.



﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾.

وصورة أخرى تدل على رحمة الملائكة ورقتهم وتأوههم على عباد الله حيث قال الله عنهم: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ واستغفارهم لأهل الأرض عامةً إما أن يبقى على عمومه فهم يطلبون مغفرة الله لكل أحد مؤمن وغيره، أو أنهم يطلبون من ربهم حلمه وإمهاله لأهل الأرض لما يرونه من أفعالهم التي لا تليق بالله، وهم أعلم المخلوقات بربهم.



ومع هذه الرقة والرأفة لك أن ترى غيرة الملائكة وغضبهم ممن لم يؤمن بربه وقد أمهله الله حتى توفاه، وأمر الملائكة بقبض روحه، فكيف يكون قبضهم لروح مَن لم يعرف ربهم ولم يؤمن به ويكابره ويعانده، وصف الله لنا غضبهم فقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧]، وقال عن هذا الضرب: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]. إن هذا الضرب فرعٌ عن كمال محبتهم لمولاهم سبحانه وكمال غيرتهم له، ولما رأى الله ـ وهو العليم ـ هذه الغيرة قال عنها: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]. ولكمال غضبهم لله جعل الله خزنة النار



منهم لئلا تأخذهم في الله رأفة أو رحمــة، وهذا أعلى ما يكون عليه الإيمان أن يرحم مــن يرحمه الله ويغضب لمن يغضب الله عليه، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣١].

والقرآن يخبرنا عن صلاتهــم علينا ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣] اقرأها مرة ثانية، الملائكة تصلي علينا أي تدعو لنا بأن يخرجنا الله من الظلمات إلى النور، فلماذا انشــغلت الملائكــة بنا فأخذت من أوقاتها المعمــورة بذكر الله لتدعو لنا؟ فلمــاذا يا تُرى اختارت الملائكة هذا الدعاء؟!

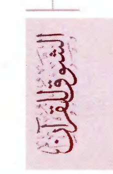


إن الملائكة خُلقوا من نور، ويرون نور المؤمن ونور عمله ونور قرأنه ونور ذكره لله، ويرون ظلمات الشياطين، فالشياطين تتواجــد في الظلمــات، والملائكة ترى الظلمة تتســلل لقلب المؤمــن على هيئة شــهوة أو تعلــق بغير الله أو رجــاء لغيره أو خوفٍ من غيره والملائكة تغار على قلب المؤمن تريده أن يبقى معمورًا بنور الله، فلكمال وعظمــة محبتها لله تحب دينه وشرعه وأولياءه، فتسأل ربها أن يرحم المؤمنين ويخرجهم من الظلمات إلى النور. ما يُدريك لعل بعض هداية الله لك هي من اســتجابته لدعاء الملائكة لك فأخرجك الله من الظلمات إلى النور. إن القرآن يريد أن يعيد علاقتنــا بالملائكة إلى حجمها



اللائق بها فيجعلها ركنًا في الإيمان لا يقوم الإيمان إلا به، كما أن القرآن يعيد لنا مفهوم النور، وأن نراجع أنفسنا في فقه النور وطُرق تحصيله، ولا يكون ذلك بعد الله إلا عن طريق الملائكة فمادتهم نور، ولأنهم أنوارٌ كاملةٌ أذن الله أن يعرجوا إليه وينزلوا من عنده، ولا يأخذون معهم إلا ما كان نورً لعلمهم بأن الله نور لا يقبل إلا نورًا، كما قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فمن الذي يصعد بالكلم الطيب إلى الله؟ لم يأذن الله لأحد إلا للملائكة لأنهم نورٌ، فالتسبيحة والتهليلة والآية والعمل الذي يخرج من قلبٍ نوَّره الله بالإيمان فعظَّم الله ومجَّده وأخلص عمله لربه ابتغاء وجهه وحده يكون لأعماله نورٌ، فتحمله الملائكةُ وهم نورٌ فيجتمع نورهم مع نور عمل المؤمن، فيصعدوا بذلك العمل فرحين به لعلمهم بفرح الله به، فهم أعرف المخلوقات بما يحبه الله وما يفرحه، ألا تتوقع بعد ذلك أن تدعو الملائكة لصاحب ذلك العمل بأحب دعوة عندهم وهي إخراج الله له من الظلمات إلى النور؟!.

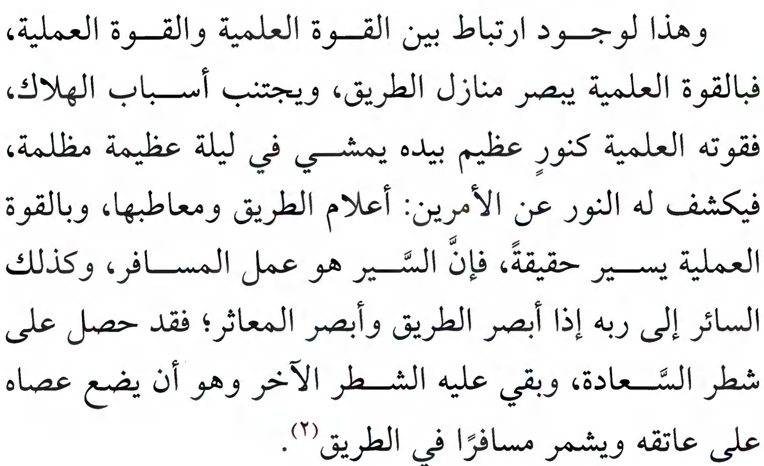
والمقصود أن قارئ القرآن يكون قد استجلب الملائكة من حوله، ويرون نور قلبه، ونور قلبه يكون بحسب ما قام به من خشية الله وخوفه ورجائه ومحبته من جرَّاء من يقرأه من آيات، فأين هذا ممن يقرأ ولا يفهم المعاني؟!



القسم الخامس
الفجوة بين العلم بالقرآن والعمل به

الفجوة بين القرآن والعمل به:

إنَّ اقتضاء العلـم العمل وارتباط العقيـدة بالحياة والدنيا بالآخرة سمةٌ بارزةٌ من سمات تعاليم رسول الله ﷺ لأصحابه قولاً وعملاً، فكان يربيهم على أنه لا يوجد في هذه الشـريعة فصلٌ بين العلم والعمل ولا بين الدُّنيا والآخرة[١].



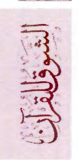
وهذا لوجـود ارتباط بين القـوة العلمية والقـوة العملية، فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق، ويجتنب أسـباب الهلاك، فقوته العلمية كنورٍ عظيم بيده يمشـي في ليلة عظيمة مظلمة، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق ومعاطبها، وبالقوة العملية يسـير حقيقةً، فإنَّ السَّـير هو عمل المسـافر، وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأبصر المعاثر؛ فقد حصل على شطر السَّـعادة، وبقي عليه الشـطر الآخر وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافرًا في الطريق[٢].



---

(١) تربية النبي ﷺ لأصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ في ضوء الكتاب والسُّنة، ص(١٢١).

(٢) طريق الهجرتين بتصرف، ص(١٨٣).



ولهذا؛ فإنَّ لفظ (القُـرَّاء) كان يُطلق ويُرادُ به مَن كان لديه علم بالقرآن وأحكامه والسُّـنة، وتعبَّد لله باتباعهما، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وكان القُرَّاءُ أصحاب مجلس عُمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شبانًا»[١].

ويبدو أن انفصال قراءة القرآن عـن العمل به بدأت مُبكرًا في الأمة، فهذا الفضيل بن عياض رضي الله عنه يقول: «إنما نزل القرآن ليعمل به فاتخذ الناس قراءته عملاً»، وهُمْ بهذا يحاولون إشباع ضمائرهم بهـذا، والفضيل يبيِّن لهم طريقـة العمل، فلما قيل: كيف العمل بـه؟ قـال: «أي ليحلوا حلاله ويحرِّمـوا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه»[٢].



ومن أخطر الآثـار التـي وردت ما جاء عـن علماء بني إسرائيل ـ وهم شـبهٌ لنا ـ فقال وهب بن مُنبه رحمه الله: «قال الله تعالى فيما يعيب به أحبار بني إسـرائيل: أتفقهون لغير الدِّين، وتتعلمون لغير العمل، وتبتاعون الدُّنيا بعمل الآخرة، تلبسـون جلود الضـأن، وتخفون أنفـس الذئاب، وتَنقُـون القذى من شـرابكم، وتبتلعون أمثال الجبال من الحـرام، وتُثْقِلُون الدِّين

(١) صحيح البخاري، (٧٢٨٦).
(٢) اقتضاء العلم العمل، ص(٧٥).



على النَّاس أمثال الجبال، ولا تعينونهم برفع الخناصر؟ تُطَوِّلُون الصَّلاة وتبيضون الثياب، وتغتصبون مال اليتيم والأرملة، بعزتي حلفت لأضربنكم بفتنة يضل فيهـا رأي كل ذي رأي، وحكمة الحكيم»[1].

ولـو تأملنا فقرات هـذا الأثر لوجدنا أن اختـلال الظَّاهر والباطن هو العلامة البارزة في الحديث، حتى أصبح لباسـهم وهو ظاهرهم جلود الضأن، وباطنهم أنفس الذئاب، ولاحظوا إشباع الضمير بطول الصلاة؛ ليُخفف من تأنيب الضمير، ومع هذا في قلوبهم حسد فيُثقِلون الدِّين على النَّاس، وأساس هذه الأمراض كلِّها العلم لغيـر العمل، ومن ذلك قراءة القرآن لغير العمل به.



وممـا يعين على فهـم كلام الله: الإخـلاص لله، كما قال أبو عبـد الله الرُّوذبـاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العلم موقوفٌ علـى العمل، والعمل موقوفٌ على الإخـلاص، والإخلاص لله يورث الفهم عن الله»[2]، كما أن العمل بالقرآن يعين على حفظه.

---

(١) أخرجه أبو داود في (الزهد)، (٧)، وابن أبي شيبة، (٨/ ٣١٠)، والبيهقي، (٥/ ٦٩٥٣).

(٢) اقتضاء العلم العمل، ص(٣٢).

وعلاقة العلم بالإيمان وثيقة، فانفـراد أحدهما عن الآخر يعتبر خللاً فـي التربية الإيمانيـة، كما قال ابـن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقبض الأمانة والإيمان ليس هو قبض العلم، فإنَّ الإنسان قد يؤتى إيمانًا مع نقـص علمه، فمثل هذا الإيمـان قد يرفع من صدره كإيمان بني إسـرائيل لما رأوا العجـل، وأما مَن أوتي العلم مع الإيمان؛ فهذا لا يرفع من صدره، ومثل هذا لا يرتدُّ عن الإسـلام قطُّ، بخلاف مجرد القرآن أو مجرد الإيمان؛ فإنَّ هذا قد يرتفع، فهذا هو الواقع، لكـن أكثر ما نجد الردة فيمن عنده قرآن بلا علم وإيمان أو مـن عنده إيمان بلا علم وقرآن، فأما مَن أوتي القرآن والإيمان فحصل فيه العلم؛ فهذا لا يرفع من صدره، والله أعلم»[1].



ولم يكن العلم في عهد السَّلف كالثوب يُلبس للتجمُّل، إنما العلم للعمل، وكانوا يرون أن العلم إما حجةٌ لك أو عليك، ولهذا لا يستكثرون منه إلا للعمل، وَقَدْ كَانَ فتىً يَخْتَلِفُ إِلَى أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَـةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، فَيَسْـأَلُهَا وَتُحدِّثُهُ، فَجَاءَهَا ذَاتَ يوم ٍيَسْأَلُهَا فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ، هَلْ عَمِلتَ بَعْدَ مَا سَـمِعتَ مِنِّي؟ فَقَـالَ: لَا وَاللهِ يَا أُمَّه، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ، فَبِمَا تَسْتَكْثِرُ مِنْ حُجَجِ اللهِ عَلَينَا وَعَلَيكَ؟!»[2].

(١) مجموع الفتاوى، (١٨/ ٣٠٥).

(٢) اقتضاء العلم العمل، ص(٦٠).



إنَّ لدينا فجوةً بين القرآن والواقع الذي نعيشه وهي فجوة كبيرة جدًّا؛ فكَمْ مِن آية نقرؤها تخالف سلوكنا تمامًا، أو تخالف عادةً اجتماعية لدينا، أو تخالف تصورًا عندنا، علينا أن نقول هذا الأمر ويتغشانا الحياء من الله والخضوع له، والاعتراف بين يديه بالتقصير، وأن نلهج بالدُّعاء بالمغفرة على مخالفتنا لكلام الله.

ألم نقرأ قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]؛ فما حقيقة اتباعنا للنبي ﷺ ؟! يُنْبِئكَ عن ذلك مقدار حفظنا لأحاديث السُّنة النبوية!!



وقوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨] يقرأها البعضُ ويداومُ على تفويت صلاة الفجر!!

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥] يقرأها ولا يحفظ!!

وقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ [غافر: ١٩] وأعيننا تخون - عفا الله عنا جميعًا!!

وقوله تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] والقلب أحيانًا يقلق فلا يعالج قلبه بذكر الله مع أنه يقرأ الآية ويفهم معناها!!



وقولـه تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢] والظن عندنا يزداد، كأن كلمة (اجتنبوا) لينة المعنى سهلة الشأن!!

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠] فلننظر إلى نسب المخدرات والمسكرات لنعلم مدى استجابتنا للآية!!

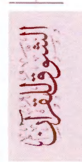
وقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]؛ فماذا نفعل مع المؤمنين حال الخصومة أو موقف خاطئ عارض؟! هل يكون هناك خفض جناح أو كسر جناح؟!



وقولـه تعالـى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩] هل تتوقعون أننا رأينا هؤلاء الخلف؟! أو أننا المقصودون؟!

وقولـه تعالـى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ونحن نقرأ أن أهل الشكور قليل، فهل جاهدنا أنفسنا لنكون من القليل؟!

وقولـه تعالـى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ فما حسُّ الدعوة في حياتنا؟!



وقوله تعالـــى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأنفال: ٤٥]؛ فما نسبة ذكرنا لله مقارنةً بذكرنا لغيره.

أما آيات العقيدة وأعمال القلوب والولاء والبراء والتوحيد والشـــرك والهوى وغيرها؛ فالخلل عندنا نرفعـــه لله.. يا تُرى ما سبب هذه الفجوة بين ما نقرأه وما نعمل به؟!

وقد نقرأ الآيات التي فيها صفـــات المنافقين وفينا إحدى تلك الصفات، والآيات التي فيها أعمال الكافرين وقد نمارس بعضها من وجه دون وجه.



إنَّ بعض الآيـــات التي تُقـــرأ لو كان لهـــا لســـانٌ لَلَعَنَتْ صاحبها، الفم الذي يقرأ آيات النفاق والصد عن سبيل الله مع قلبٍ وجوارحٍ تنطوي علـــى ذلك، ماذا ســـتقول الآية له أثناء قراءته لها يا تُرى؟! نسأل الله ﷻ أن يعفو عنا.

وقال بعض العلماء: «إنَّ مَن عمل بالقرآن فكأنه يقرؤه دائمًا وإنْ لم يقرأه، ومَن لم يعمل بالقـــرآن فكأنه لم يقرأه وإنْ قرأه دائمًـــا، فمجرد التلاوة والحفـــظ لا يعتبر اعتبـــارًا يترتب عليه المراتب العلية في الجنة العالية»[1].

(١) عون المعبود مع حاشية ابن القيم، (٤/ ٢٣٨).

هل قراءة القرآن لتحصيل الحسنات فقط؟

وَضَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأجر على حروف القرآن، ففي كلِّ حرف عشر حسنات والله يضاعف لمن يشاء إلا أن ذلك وسيلة لغاية؛ فما هي الغاية من هذا الأجر؟

إنَّ الغاية أن تتحفز أنفسنا على القراءة للوصول إلى التدبُّر ثم التطبيق والعمل، إنَّ كلَّ شيءٍ في القرآن غير العمل به إنما هو وسيلة وليس غاية، إنه لا مقارنة بين حسنات تأتي من وراء قراءةٍ لا فهم فيها ولا تدبُّر، وحسنات من وراء قراءة تدبر وتفكُّرٍ، كما أن المحافظة على الورد اليومي للقرآن هي أيضًا وسيلة للتفكُّر في معانيه وإعادتها على النفس، ثم العمل بها، فلا يمكن أن تنقلب الوسيلة غاية، ويكون المقصود هو مجرد المحافظة على الورد أو مجرد القراءة بدون فهم معنى.

إنَّ الأمر يستدعي أن نركِّز في قراءتنا للقرآن، وننتبه للألفاظ التي نقرؤها، وهو ما يعرف بحضور القلب أثناء القراءة، وذلك المراد بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فإلقاء السَّمع هو الإنصات المأمور به في قوله: ﴿وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ومعنى شهيد: أي حاضر القلب.



بهذا الحضور القلبي والانتباه الذهني لمعاني القرآن يفتح المجال أمــام آيات القرآن لتفعل أثرها فــي القلب، ومن ذلك زيادته للإيمان شيئًا فشيئًا.

فقراءة القرآن باب عظيم لتحصيل الحســنات، لكن قراءة التدبُّر والتأمُّل والتفكُّر أعظم بكثير من مجرد القراءة بدون فقه معنى، وهو المقصود الأعلى للقراءة.

إنَّ قوله ﷺ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ»[1] مثالٌ واقعي عملي على القراءة الصحيحة، وهي قراءة التدارس التي يستفيد منها قارئ القرآن مع إخوانه، ليس هذا الاجتمــاع مجرد درس من دروس العلم يلقي فيه الشيخ تفسير الآيات والتلاميذ منصتون، إنما هو درس قرآني آخر يتشــارك الجميع فــي فهم معاني الآيــات، وذكر الشواهد والأمثلة والآيات التي تشبه هذه الآية، وعرض الآيات على الواقع العملــي، وتصحيح الأخطــاء الحياتية على ضوء الآيات، يشــارك في ذلك أهل المجلس، فيقومون وقد ازدادوا إيمانًا، وأَنِسُــوا بالله وكلامه، ثــم ينقلوا فوائد هــذا المجلس



(١) صحيح مسلم، (٢٦٩٩).

وما دار فيه إلى أهلهم وبيوتهم، كلُّ ذلك ليُطبِّق المؤمن الإيمان واقعًا عمليًّا في حياته قولاً وسلوكًا؛ لأن القرآن يجعل هناك انسجامًا بين القول والفعل، فقارئ القرآن أدَّبه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

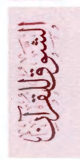
إنَّ مِن أمراضنا المعاصرة أننا نَمَّقنا القول وزخرفناه وزيَّناه ـ نسأل الله أن يعفو عنا ـ وكان ذلك على حساب العمل، وهذا مَكْمَن الخطأ، فنحن مأمورون بالقول الطيب؛ إلا أنه ينبغي الحذر؛ لأن القول الطيب المجرد قد يريح الضمير، ويُشعر العبد بأنه أدَّى ما عليه، وهذا يُعالج ذلك بالعمل بالقرآن، فيزداد العمل ويتقدَّم على القول.



إنَّ مِن نعم الله أن الله سهَّل قراءة القرآن، فهو يقرأ في كلِّ مكان ماعدا الخلاء، ويُقرأ على كلِّ حال ماعدا الجنابة، فلا يحتاج إلى أدوات وهيئات وطقوس معينة وهذا ليتوافق مع الأمر بقراءته.

الله سبحانه وتعالى يغضب لكلامه:

حينما تنتهك محارم الله؛ فإنَّ الله يغضب لحرماته، ولهذا خطب النبيُّ ﷺ في صلاة الكسوف وكان مما قال: «**إنْ مِنْ**



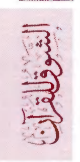
أَحَدٍ أَغْيَرَ مِـنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ، أَوْ تَزْنِـيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً»[1].

فالله سبحانه وتعالى يغار على الزنا؛ لما فيه مـن انتهاك حرمات الله، والله ملك الملوك، والملوك يغضبـون إذا انتهكت محارمهم ـ ولله المثـل الأعلى ـ ولهذا يخسـف بالشـمس والقمر لأجل انتهاك حرماته؛ فكيف إذا انتهكـت حرمة كلامه سبحانه وتعالى الذي هو صفته، وأُهمل العمل به، وبُدِّل القرآن بغيـره، فلا بُدَّ أن تنزل عقوبةٌ بذلك، وأشد العقوبات حينما يعاقب العبد ولا يشعر أنه معاقب، فزوال أثر القرآن من حياتنا، وذهاب لذته الكاملة عن قلوبنا أعظـم العقوبات، ومـن العقوبات ذهـاب معانيه عن أذهاننا، وغيـاب عقولنا عن اسـتحضاره فـي تفاصيل حياتنا اليومية.. لا بُدَّ أن نستشعر أن ما نحن فيه من غياب أثر القرآن فينا هو نوع عقوبة بل أقسى العقوبات، نسأل الله العفو والعافية، وأن يعيذنا شر أنفسنا المقصرة.



وقد جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «وَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ أَوْشَـكَ أَنْ يُرْفَعَ. قَالُوا: وَكَيْفَ، وَقَدْ أَثْبَتَهُ اللهُ فِي قُلُوبِنَا، وَأَثْبَتْنَاهُ فِي الْمَصَاحِفِ؟! قَالَ: يُسرى عَلَيْهِ لَيْلاً، فَيَذْهَبُ

(١) المصدر السابق، (٩٠١).



مَا فِي قُلُوبِكُـم، وَيُرْفَعُ مَا فِـي الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ قَـرَأَ عَبْدُ اللهِ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسـراء: ٨٦]»[١]؛ فلماذا يسرى عليه ليلًا ويزول من القلوب؟! لأنه لا يُعمل به مع أنه يُقرأ في الألسن.

وهذا الزوال كان معروفًا عند السَّـلف؛ فقـد قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُسرى بالقرآن ليلاً، فيرفع من أجواف الرِّجال، فيصبحون لا يصدقون حديثًا، ولا يصدقون النســاء، يتسافدون تسافد الحمير، فيبعث اللهُ ريحًا، فتقبض روح كل مؤمن»[٢].

وغضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعقوبته يُرفـع برضا الله ومعافاته، كما في دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سُخْطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ**»[٣]، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يرضى إذا تدبَّرنا كلامه وعملنا به.

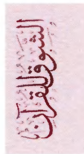


---

(١) أخرجه الدارمي، (٣٣٤٤)، والبيهقي، (١٨٦٩)، وسـعيد بن منصور في سننه، (٩٧)، وقال محققوه: «فالحديث صحيح لغيره بمجموع الطرق عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

(٢) سـنن سـعيد بن منصور (٩٦)، قال محققوه (٢/ ٣٣٤): «الحديث سنده رجاله ثقـات، لكنه ضعيف لعنعنـة مغيرة، فإنه مدلـس، ومع ذلك فهو مرسل؛ لأن إبراهيم النخعي لم يذكر مسـتنده في الإخبار عن أمر غيبي كهذا، لكن قوله: (يسـرى بالقرآن ليلاً، فيرفع من أجواف الرجال) صحَّ نحوه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

(٣) صحيح مسلم، (٤٨٦).



هل يمكن أن ينفك معرفة معنى القرآن عن قراءته؟

لماذا نهى النبي ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن الختم بأقل من ثلاث ليالٍ؟[1] لو كان الأمر متعلقًا بمجرد قراءة الأحـرف والأجر المترتـب على ذلـك لما نهـى النبي ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن ختم القرآن بأقل من ثلاث ليالٍ، ألا يسـتطيع شـخصٌ أن يختم القرآن بليلتين مثلاً وهو يملك ٤٨ سـاعة؟! ألا يمكن أن يقرأ قراءة مفهومة غير سريعة جدًّا؟! بالتأكيد هو يستطيع، إذن؛ لماذا نهى عن ذلك؟! وما هو السِّر في الثلاث ليالٍ؟!



سبب ذلك ورد في إحدى روايات الحديث في قوله ﷺ: «**لَا يَفْقَهُ مَنْ قَـرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**»[2]، وفي سـنن ابن ماجة مرفوعًا: «**لَـمْ يَفْقَهْ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِـي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**»[3]، فالرواية الأولى خبرٌ بالنفي، والثانية جزمٌ بعدم الفقه.

والعجيب حقًّا لو أن خطابًا صدر من جهة عملِنا لحرصنا على قراءته ومعرفة معانيه، وإنْ كانت هناك كلمة تحتمل أوجهًا

(١) سنن الترمذي، (٢٩٤٩)، وصحَّحه الألباني.
(٢) سنن أبي داود، (١٣٤٩).
(٣) سنن ابن ماجة، (١٣٤٧)، وصحَّحه الألباني.

لجمعنا قرائن الأحوال مع استشارة المتخصصين لمعرفة المعنى الصَّواب دون غيره، فإذا قرأنا القرآن اكتفينا بالأجر المترتب على الحروف وتوقفنا عند ذلك، فمَن المتسبب بهذا التعامل مع القرآن؟

لو تتبع باحثٌ بداية الانفصال بين قراءة القرآن وفقه معناه وسبب هذا الانفصال، ولماذا لم تكن كُتُب الفقه وسائر العلوم على هذا الانفصال؟

بالتأكيد هي مجموعةٌ من الأسباب ولا أعلم سببًا خاصًّا دون غيره، إلا أن الشَّيطان قد نجح في إبعادنا عن فقه معاني كلام ربنا، وقد يُقبل أن الإنسان يستعجل قراءة القرآن أحيانًا في المواسم المباركة كرمضان وعشر ذي الحجة، إلا أن ذلك ليس على حساب معاني الآيات.

لم يقل أحدٌ من أهل العلم أنه يجوز لقارئ القرآن أن يستعجل القراءة من غير فقه لما يقرأه، خاصةً إنْ كان هذا عادةً له، إنَّ بعض أهل العلم يُرَخِّص في التَّخففِ من التأمُّل والتَفَكُّر في الأوقات الفاضلة، فقد لا يقف عند كلِّ آية، وقد يترك سؤال الله الرحمة عند آيات الرحمة استعجالاً للوقت، أو يترك الاستعاذة عند آيات العذاب، لكن قدرًا من فقه المعنى لا بدَّ أن

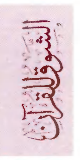


يوجد أثناء القــراءة، ثــم إنَّ القائلين بالتخفــف يخصونه في الأوقات الفاضلة ولا يكون ذلك عادةً.

وقد ذكر الآجــري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه العظيــم (أخلاق حملة القرآن) عددًا من الأسـئلة التي يثيرها قــارئ القرآن وهو يقرأ القرآن، فقال: «إِذَا دَرَسَ الْقُرْآنَ فَبِحُضُورِ فَهْمٍ وَعَقْلٍ، هِمَّتُهُ إِيقَاعُ الْفَهْمِ لِمَا أَلْزَمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ اتِّبَاعِ مَا أَمَــرَ، وَالانْتِهَاءِ عَمَّا نَهَى، لَيْسَ هِمَّتُهُ مَتَّى أَخْتِمُ السُّورَةَ؟ هِمَّتُهُ مَتَّى اسْتَغْنِي بِاللهِ عَنْ غَيْرِهِ؟ مَتَّى أَكُونُ مِنْ الْمُتَقِينَ؟ مَتَّى أَكُونُ مِنْ الْمُحْسِــنِينَ؟ مَتَّى أَكُونُ مِنْ الْمُتَوَكِّلِيــنَ؟ مَتَّى أَكُونُ مِنْ الْخَاشِــعِينَ؟ مَتَّــى أَكُونُ مِنْ الصَّابِرِينَ؟ مَتَّى أَكُونُ مِنْ الصَّادِقِينَ؟ مَتَّى أَكُونُ مِنْ الْخَائِفِينَ؟ مَتَّى أَكُونُ مِنْ الرَّاجِينَ؟



مَتَّى أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا؟ مَتَّى أَرْغَــبُ فِي الآخِرَةِ؟ مَتَّى أَتُوبُ مِنْ الذُّنُوبِ؟ مَتَّى أَعْرِفُ النِّعَمَ الْمُتَوَاتِرَةِ؟ مَتَّى أَشْــكُرُ عَلَيْهَا؟ مَتَّى أَعْقِلُ عَنْ اللهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ الْخِطَــابَ؟ مَتَّى أَفْقَهُ مَا أَتْلُو؟ مَتَّى أَغْلِبُ نَفْسِــي عَلَى هَوَاهَا؟ مَتَّى أُجَاهِــدُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْجِهَادِ؟ مَتَّى أَحْفَظُ لِسَــانِي؟ مَتَّى أَغُضُّ طَرْفِــي؟ مَتَّى أَحْفَظُ فَرْجِي؟ مَتَّى أَسْــتَحِيي مِــنْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ؟ مَتَّى اشْــتَغِلُ بِعَيْبِي؟ مَتَّى أُصْلِحُ مَا فَسَدَ مِنْ أَمْرِي؟ مَتَّى أُحَاسِبُ نَفْسِي؟



مَتَّى أَتَزَوَّدُ لِيَوْمِ مَعَادِ؟ مَتَّى أَكُونُ عَنْ اللهِ رَاضِيًا؟ مَتَّى أَكُونُ بِاللهِ وَاثِقًا؟ مَتَّى أَكُونُ بِزَجْرِ الْقُرْآنِ مُتَّعِظًا؟ مَتَّى أَكُونُ بِذِكْرِهِ عَنْ ذِكْرِ غَيْرِهِ مُشْتَغِلاً؟ مَتَّى أُحِبُّ مَا أَحَبَّ؟ مَتَّى أَبْغَضُ مَا أَبْغَضَ؟ مَتَّى أَنْصَحُ للهِ؟ مَتَّى أُخْلِصُ لَهُ عَمَلِي؟

مَتَّى أُقَصِّرُ أَمَلِي؟ مَتَّى أَتَأَهَّبُ لِيَـوْمِ مَوْتِي وَقَدْ غُيِّبَ عَنِي أَجَلِي؟ مَتَّى أُعَمِّرُ قَبْرِي؟ مَتَّى أُفَكِّرُ فِي الْمَوْقِفِ وَشِـدَّتِهِ؟ مَتَّى أُفَكِّرُ فِي خُلْوَتِي مَعَ رَبِّي؟ مَتَّـى أُفَكِّرُ فِي الْمُنْقَلَبِ؟ مَتَّى أَحْذَرُ مَا حَذَّرَنِي مِنْهُ رَبِّي مِنْ نَارٍ حَرُّهَا شَـدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَغَمُّهَا طَوِيلٌ، لا يَمُوتُ أَهْلُهَا فَيَسْتَرِيْحُوا، وَلا تُقَالُ عَثْرَتُهُمْ، وَلا تُرْحَمُ عَبْرَتُهُمْ، طَعَامُهُمْ الزَّقُومُ، وَشَرَابُهُمْ الْحَمِيمُ؟»[١].



إنَّ جواب هذه الأسـئلة لا يكون بقراءة سريعة تحفظ فيها الحروف ويهمـل المعنى، لكن التَفكُّر بسـؤال واحد كفيلٌ أن يغيِّر حياتك وينوِّر دربك.

التوازن بين الاهتمام بالحروف مع الاهتمام بالمعاني:

أكثر خلل يواجـه المؤمنيـن اليوم حرصهـم على حفظ حروف القـرآن، والتدقيق فـي مخارجه، والتفنـن في أحكام التجويد، ولا يقارن ذلك بالحـرص على معرفة معاني القرآن،

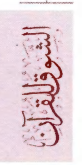
(١) أخلاق حملة القرآن، ص(٢٧).



ولهذا لا تعجب أن تجد حافظًا للقرآن متقننًا له وهو لا يعرف كثيرًا من معاني غريب القرآن، وهذا من العرب؛ فما بالك بالعجم؟!

والله ﷻ أنزل الكتاب والميزان كما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ ومن ميزان العدل أن يكون هناك توازن بين حفظ الحروف وفهم المعنى، ومما يساعد على هذا الميزان أن القرآن بلسان عربي، فكلمات القرآن نستعملها في حياتنا اليومية، ومع أن اللُّغة العربية في زماننا ليست بقوتها القديمة إلا أنها لم تفقد عربيتها وإنْ تغيَّرت اللهجة أو النطق إلا أن المعنى ما زال كما هو في اللُّغة العربية الأولى، وخُذْ أمثلةً من ألفاظ القرآن: فكلمة (قُلْ)، وكلمة (أحد)، وجملة (لم يلد ولم يولد) لازلنا نستعملها في حياتنا بنفس المعنى، حتى كلمة (كفوًا) نستعملها في عاميتنا المحلية مع اختلاف النطق قليلاً إلا أن المعنى لازال هو نفس المعنى، فالكفو هو المثل والنظير، وقريبًا من هذا كلمة (الصمد) والتي نستعملها فنقول للابن حينما نريد تشجيعه: اصمد، أي: اثبت وكُنْ مستغنيًا عن غيرك، ومجموع هذه الكلمات هو سورة الإخلاص التي هي أعظم سورة في القرآن.





ولو ذهبنا نستعرض كثيرًا من آيات القرآن لوجدناها على هذا النحو، وليس هذا الكلام مدعاة إلى استباحة تفسير القرآن والتهوين منه، لكن المقصود منه إزالة الحواجز التي زُرعت بيننا وبين فهم القرآن، فالمسلم الذي يريد أن يفهم كلام مولاه لن يعجزه ذلك في أغلب آيات القرآن، سيفهم منها ماذا يريد منه ربه؟ وبماذا يخبره؟ فإنْ كان مع مصحفه تفسيرٌ للقرآن؛ لأصبح الأمر يسيرًا بحمد الله.



إنَّ فضل الله علينا ـ معشر العرب ـ عظيم في أن جعلنا عربًا وأنزل كتابه عربيًا، ولكي ندرك مقدار النعمة تخيَّلوا لو أننا عجم لا نعرف معاني الكلمات التالية: كلمة (الحمد) وكلمة (مالك)، وكلمة (إياك نعبد)، وجملة (اهدنا الصراط المستقيم)، وغيرها من الكلمات التي يعرفها أبناؤنا بحمد الله، أقول ذلك لأذكِّر نفسي وأذكِّركم بشكر الله على هذه النعمة التي يُغفلنا الشيطان عنها، ويريد بذلك ألا نستثمر هذه العربية في فهم كلام ربنا، وأفضل ما نعالج به وضعنا المعاصر الاطلاع على برنامج الصحابة أثناء نزول القرآن فكيف كان؟ وهل يقدِّمون الحفظ على غيره؟ وهل كانوا يحفظون الكلمات الغريبة؟ وسيأتي بيانه.



القرآن بلا معنى كالجسد بلا روح:

سمَّى الله سبحانه وتعالى كلامه روحًا كما قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، ولتسميته روحًا دلالة على أن الحياة تكون به، وأن الجسد بلا قرآن جسدٌ بلا روح حقيقية وإنْ كان يتنفس، وكذلك قراءة القرآن بدون فهم المعنى فهي قراءة خالية من الروح. إنَّ مرضين مذكوران في القرآن سبب لكون القرآن بلا روح، وهما المذكوران في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وهما: التكذيب والغفلة.

والمؤمن وإنْ كان مصدقًا بكلام الله، وأن الله تكلَّم به، إلا أنه غافلٌ عنه وعما فيه، إنَّ من الغفلة أن تقرأ مرضك في الآية وعلاجك ثم لا تنتبه له، فكم نقرأ آية في الظلم وآية في الفسق وآية في الجحد وآية في التكذيب وأخرى في الربا وفي صفات المنافقين وأمراض اليهود والنصارى وغيرها، وكلُّ آية تخاطب فينا مرضًا تنطوي عليه جوارحنا وقلوبنا، ولم نفقه معناها، ولم نُنزِلُها على حالنا، فاللسان يقرأ آية الأمانة التي عُرضت على السموات والأرض والجبال فأبَين أن يحملنها، ولو فتشنا في أمانة العلم التي نحملها، وأمانة الصلاة التي نقوم لها، وأمانة اللسان والعين، وأمانة الأبناء والبنات والأهل، وأمانة الرزق



وغيرها من الأمانات التـــي نؤمر بإيفاء العقـــود فيها ومع هذا نتحايل على تلك الأمانـــات، أو نهمل رعايتهـــا كما قال الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨]، كما أن كلَّ شعائر الله هي أماناتٌ وعقودٌ علينا الوفاء بها بناء على تصديقنا بوعد الله لمن يؤدي الأمانـــة، ووعيد الله لمنتهكها، وكم حكى الله ﷻ لنا خيانة أهل الكتاب لدينهـــم وكتبهم، وخيانة الأعين عما حرم الله ليعلم الله مَن يخافه بالغيب.



وآية ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٧] هي تخاطب كلَّ ذرة في جوارحنا وتطهرها عن التلبـــس بالظلم، فالمفترض أن تزلزل هذه الآية باطننا وظاهرنا لتنفض عنا أيَّ صورة من صور الظلم الذي نعلمه، ثم نستغفر الله مما يعلمه ولا نعلمه.. أليس من الغفلة أن نقرأ هذه الآية وبيوتنا تَعُجُّ بصورٍ من ظلمنا، كما أن علاقاتنا أيضًا مع غيرنا يشوبها الظلم؟!

وهنا سؤال آخر: إلى أيِّ مدى تمتد الغفلة عن القرآن؟

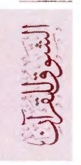
والجواب: أنها تمتد لتصل إلـــى آيات الله الكونية الكثيرة، إنَّ كلَّ ما حولنا هو آيات لله أيضًا، فمن لم يعتبر بآية يقرأها فلن يعتبر بآية يراهـــا، فمَن لم ينتفع بأذنيه فلـــن ينتفع بعينيه أيضًا، فالعين والأذن أدوات انتفاع تقربك إلى الله، فمَن لم يستعملها



لما خُلِقن له فقد ظلمهما، فانظرْ كيف امتدت الغفلة إلى سائر حياتنا، كما أن مَن عقل آيات القرآن امتدت عبرته ويقظته بآيات الكون كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].. ففهم القرآن هو روح الحياة كلها.

وقارئ القرآن الذي يقرأ حروفه ويغفل عن معانيه، ويقرأ آياتٍ تهدِّده هو وتتوعده وهو غافلٌ عن ذلك، فهو يقرأ حتفه وهلاكه، ضرب الله له مثلاً غريبًا فقال: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ٥]، فيأتي الشيطان ونحن نقرأ هذه الآية فيلفت انتباهنا على كلمة ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ثم نرجع إلى أنفسنا فلا نجد فيها تكذيبًا فيهُون علينا وقع الآية، بينما مقصود الآية أن كلَّ مَن غفل عما يقرأه ويتعلَّمه ففيه صفة من صفات الحمار، والناس ما بين مُقِلٍّ ومسكثر، كما قال: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥٠]، وإذا كانت هناك عقوبات تنتظر المكذبين بآيات الله؛ فهناك عقوبات تنتظر الغافلين أيضًا، قد تختلف في نوعها وشدتها ولكن عذاب الله شديد.





أليس من الغفلة أننا نقرأ آياتٍ ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها العذاب الشديد، وذكر لنا غضبه ومقته وسخطه ولم يخالطنا شعورٌ يليق بذلك الغضب الرباني؟! إنَّ هذا كلَّه يدعونا لإعادة النظر في قراءتنا للقرآن وفقهنا لمعانيه.

لماذا سورة يوسف؟

سورة يوسف المحببة لدى المسلمين، حتى أننا غالبًا لا نزال نذكر أول مجلس شُرحت لنا فيه هذه السورة، ولا زال البعض منا يتذكر أول معلم شرحها، سورة يوسف يقرأها الإمام في صلاة رمضان فلا نشعر بطول الصلاة ولو قرأ نفس مقدار الأوجه من سورة أخرى لأصابنا التعب.



من شدة تفاعلنا مع سورة يوسف نجد أن آياتها تعرض مشاهد القصة أمام أعين قلوبنا، فكأننا نراهم حينما تشاوروا في قتل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أو إلقائه، وكأننا بجوارهم حين جاءت سيارة فأرسلوا واردهم وأخرجوا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من البئر، وكم نتأسف إذا سمعنا سعر نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿بِثَمَنٍۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].

وكذلك مشهد المراودة عن النفس لا يغيب عن الذهن، والعين كأنها ترى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يبكي على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ،

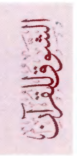


ومما يكاد أن يقطع القلب آية: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٨]، فإذا قرأ القارئ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، وقرأ: ﴿أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤]، فلا تكاد أُذنك تخطي صوت باكٍ من المصلين، وقول يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] قد جعلها بعض الناس شعارًا تحت اسمه في وسائل التواصل من شدة التفاعل مع الآية، ولأنه ينزلها على حاله.



والعجيب كذلك في سورة يوسف أن الأعين تدمع غالبًا عند قراءتها مع أنها تخلو من ذكر العذاب والتهديد، والأعجب أن بعض الكلمات ليست واضحة المعنى وضوحًا كاملاً، ومع ذلك يتضح معناها بالسياق، مثل كلمة (عصبة) وكلمة (فراودته) وكلمة (يرتع)، حتى بعد الانتهاء من سورة يوسف يُحس القارئ والسَّامع لها بأن الله قريب منه، والفرج قد جاء، ويعلق في لسانه ترديد آية من السورة تناسب ظرفه الذي يعيشه كقول الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

يتفاعل الناسُ مع سورة يوسف بما يناسب ظروفهم الدنيوية الخاصة، وإلا فهي علاج لزيادة الإيمان والتعلق بالله، وتجديد العقيدة في القلوب، وتجريد الاعتماد على الله وحده،



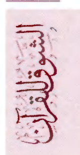
وطرد علائق الشِّرك من القلوب، وفيها من أسماء الله وصفاته ما هو كفيل أن يرقي المؤمن في عتبات العبودية لله، وفي السُّورة تصحيح لتصور الزهد الشرعي الذي يحبه الله، فيوسف عليه السلام من أئمة الزهد مع ما هو عليه من المنصب، وفيها الجمع بين عبودية التواضع والافتقار وعبودية المكانة والأمانة، وفيها تحري لمعنى القوي الأمين، وفيها إثبات البعث والزهد في الدُّنيا وحضور اليوم الآخر، وغير ذلك من مقامات الدين.

فما سر تفاعل الناس مع سورة يوسف؟



الجواب هو: وضوح معناها لدى القارئ والمستمع، فانظرْ كيف فعلت السورة حينما فُهم معناها، فكيف لو كان القرآن كله عندنا مثل وضوح هذه السُّورة، فاللذة التي حصلت مع هذه السورة تزداد مع غيرها، والتغيُّر في النفس والقلب يحدث سريعًا.

إنَّ التعامل مع ظاهر سورة يوسف بحكم لُغتنا العربية التي امتن الله سبحانه وتعالى علينا بها ينبغي أن يمتد إلى غيرها من ظواهر الآيات الأخرى، فنعرف معناها بحكم العربية أيضًا على ظاهر الآية، وكلما كان الإنسان أكثر علمًا كان أشد انتفاعًا بما يقرأه من آيات ويسمعه.



التفاعل مع قراءة القرآن:

من هدي النبي ﷺ أنه «**كَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ**»[(1)]، وفي رواية: «**لاَ يَمُرُّ بِآيَةٍ فِيهَا اسْتِبْشَارٌ إِلَّا دَعَا اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَرَغِبَ**»[(2)].

واسمعوا هذه الآثار العجيبة التي تدلُّ على تفاعل قرائها مع القرآن:

ـ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الصَّلاةِ وَلَهُ أَزِيزٌ مِثْل صَوتِ غَلَيَانِ القدرِ الذي يُطبَخُ فِيهِ الطَّعَامُ[(3)].



ـ وَقَرَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطور: ٧ ـ ٨] فَرَبَا مِنْهَا رَبْوَةً عِيدَ مِنْهَا عِشْرِينَ يَوْمًا[(4)].

ـ وَقَرَأَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرةً قَولَ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]، فَبَكَى حَتَّى انْقَطَعَ صَوتُهُ وَرَكَعَ[(5)].

---

(١) صحيح مسلم، (٧٧٢).
(٢) أخرجه أبو عبيد في (فضائل القرآن)، (١٥٠).
(٣) أخرجه أحمد، (٤/ ٢٥)، وأبو داود في (السنن)، (١٦١)، وصحَّحه الألباني في (صحيح أبي داود)، (٨٣٩).
(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١٣٧).
(٥) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١٣٧)، وتاريخ عمر لابن الجوزي ص(١٩١).



- وَقَرَأَ عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَـرةً قَـولَ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، فَبَكَى حَتَّى سُمِعَ نَشِيجُهُ مِنْ وَرَاءِ الصُّفُوفِ، مِثْلُ بُكَاءِ الصَّبِيِّ إِذَا ضُـرِبَ فَلَمْ يُخْرِجْ بُكَاءَهُ فَرَدَّدَهُ فِي صَدْرِهِ.

- وَجَاءَ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ سُحَيْمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ رَأَى ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُصَلِّي وَهُوَ يَتَرَجَّـحُ وَيَتَمَايَلُ وَيَتَأَوَّهُ، حَتَّى لَوْ رَآهُ غَيْرُنَا مِمَّنْ يَجْهَلُهُ لَقَالَ: أُصِيبَ الرَّجُلُ، وَذَلِكَ لِذِكْرِ النَّارِ إِذَا مَرَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَـى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ [الفرقان: ١٣] أَوْ شِبْهُ ذَلِكَ[1].



- وَكَانَ السَّلَفُ يبكونَ عِنْدَ قِراءةِ القُرآنِ وَالذِّكرِ كَما حَكَاهُ الحَسنُ رَحِمَهُ اللَّهُ[2].

وقد عقد القاسم بن سـلام رَحِمَهُ اللَّهُ في (فضائل القرآن) بابًا بعنوان: باب ما يسـتحب لقارئ القرآن من الجواب عند الآية والشَّهادة لها وذكر عددًا من الآثار التي فيها تفاعل بين القارئ وقراءته للقـرآن، ومنها: قول عَبْد اللهِ بْن السَّـائِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَخَّرَ عُمرُ بْنُ الْخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْعشَاءَ فَصَليتُ أَنَا، فَدَخلَ وَأَنَا لَا أَدْرِي

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١٣٧).

(٢) موسوعة ابن أبي الدنيا، (٣/ ١٩٠).

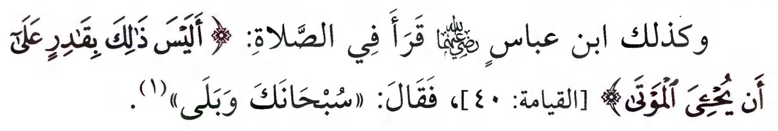


وَأَنَا أَقرَأُ: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ [الذاريـات: ١] حَتَّى انْتَهَيْـتُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريـات: ٢٢]، فَرفَعَ صَوتَهُ حَتَّى مَلأَ الْمَسْجِدَ أَشْهَدُ أَشْهَدُ».

وكذلك: عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه سَمِعَ رَجُلاً قرأَ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، فَقَالَ رضي الله عنه: «إِي وَعِزَّتِكَ، فَجَعَلْتَهُ سَمِيعًا بَصِيرًا وَحيًّا وَمَيِّتًا».

وكذلك: عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه سَمِعَ رَجُلاً، يَقْرأُ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، فَقَالَ رضي الله عنه: «يَا لَيْتَهَا تَمَّتْ!!».





وكذلك ابن عباسٍ رضي الله عنهما قَرَأَ فِي الصَّلاةِ: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠]، فَقَالَ: «سُبْحَانَكَ وَبَلَى»[١].

فالتفاعل بين قارئ القرآن والقرآن أمرٌ محمود، ومن صوره:

- إذا مرَّ بآية رحمة سأل الله الرحمة.
- وإذا مرَّ بآية عذاب استجار بالله من عذابه.
- وإذا مرَّ بآية فيها أمرٌ بالتسبيح سبَّح.
- وإذا مرَّ بآية فيها أمرٌ بالتكبير كبَّر.

---

(١) أخرج الآثار أبو عبيد في (فضائل القرآن)، ص(١٦٢).



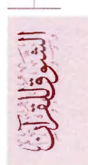
- وإذا مرَّ بآية فيها اسم لله وصفة من صفاته مجَّد وعظَّم الله.
- وإذا مرَّ بقصةٍ تعجَّب منها، وهلَّل الله وكبَّره.
- وإذا مرَّ بشيءٍ فيه أَلَمٌ تأوَّه.

ويجمع مع هذا التباكي والترديد لبعض الآيات، فيجتمع ظاهره وباطنه مع القرآن وعليه، فهذا مما يجعل القارئ مستيقظَ الذِّهن، حافزَ الهمة لتلقي الأوامر، سريعَ الاستجابة.

بعدما يمتلئ القلبُ من هذه المعاني سيبحث عن وسيلة يعبِّر فيها عن حركته وإرادته، فيجد الباب أمامه مفتوحًا للعبادات، فيُفَرِّغ ما أخذه من معاني القرآن فيها، فتجد يصلي صلاة بحضور قلب، وإذا دعا ربَّه دعاه منيبًا إليه، وإذا ذكر الله ذكره كأنه يراه، وهذا كلُّه سيكون على قدر ما أخذه القلب من معاني التعظيم والإجلال والتقدير لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حين قراءة القرآن.



ومن التفاعل ما كان من الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فحين نزل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، أو قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] فهِمُوا معناهما وتفاعلوا معهما، فجاء عددٌ منهم وتصدَّقوا بأحب ما لديهم، فتصدَّق أبو الدحداح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ببستانه وكان أحب أمواله إليه، وكان فيه



ستمائة نخلة[1]. آملُ منك ـ أيها القارئ العزيز ـ أن تُدَقِّق في عدد النخل، ستمائة نخل في ذلك الزمن!! ومع هذا تفاعل مع الآية وخرج منها كلها.

وكذلك جاء زيد بن ثابت رضي الله عنه، فتصدَّق بفرس كان يحبُّه جدًّا، فأعطاها النبي ﷺ ابنه أسامة، ثم قال له: «**لَقَدْ تقبَّلَ اللهُ صَدقَتَكَ**»[2].

وكذلك موقف معقل بن يسار رضي الله عنه حينما طُلِّقت أخته، فأراد زوجُها أن يراجعَها، فأبَى أخوها معقل، فدعاه النبي ﷺ فقرأ عليه قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾ [البقرة: ٢٣٢]، فترك الحمية واستقاد لأمر الله[3].



وكذلك نساء الصَّحابة لما نزل قوله تعالى: ﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ**﴾ [النور: ٣١] قالت عائشة رضي الله عنها: «شَقَقْنَ الْبُرْدَ مِمَّا يَلِي الْحَوَاشِي، فَاخْتَمَرْنَ بِهِ»[4].

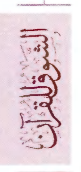
---

(١) تفسير الطبري، (٤/ ٤٣٠).

(٢) المصدر السابق، (٥/ ٥٧٦).

(٣) المصدر السابق، (٤/ ١٨٨).

(٤) المصدر السابق، (١٧/ ٢٦٢).



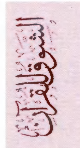
هل حفظُ القرآن هو العمل به؟

أيُّهما أسرع في زماننا المعاصر: مبادرتنا لحفظ القرآن؟ أم مبادرتنا لفهمه وتطبيقه؟! أظن أن الجواب واضح معروف.

يشتغل البعض بحفظ القرآن وتكرار مراجعته وإتقانه وضبطه ومعرفة الآيات المتشابهة والتفريق بينها، وما أسعد هذا الأعمال الصالحة، فانتشار تعليم القرآن اليوم وتحفيظه مما يُحمد الله عليه وحده، ولا تزال المجتمعات الإسلامية اليوم تزف أعدادًا من حفاظ الوحي والفضل كلُّه لله، لكن ليس مجرد حفظه هو العمل به، إنما حفظه هو الخطوة الأولى للعمل به، فلا يكون العمل إلا بعد قراءة الآيات، والشيطان يعمل هنا كيده ومكره بإشعار المؤمن بالرِّضا عن حفظ القرآن، والانقطاع بذلك الحفظ عما بعده من فقه معاني الآيات، ثم قَصْر النفس على العمل به، وهو أشد ما يكون على الشيطان، إنَّ آيةً تقرأها وتفهم معناها ثم تجاهد نفسك على العمل بها تعدل مئات الآيات التي تحفظها، فحفظُ القرآن شيءٌ والعملُ به شيءٌ آخر، وينبغي ألا يُبْرِد شعورنا للعمل بالقرآن أداؤنا لحفظه.



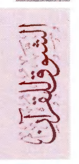
إنَّ كونَ حياتنا محاطة بالقرآن، وقرب المصاحف في بيوتنا ومساجدنا، وبثه في المقاطع الصوتية والمرئية في جوالاتنا،



وتخصيص قنوات كاملة للقرآن أورثنا شعورًا بأننا قريبون من القرآن وعاملون به.

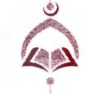
إننا نشكو من بعض الأمراض القلبية التي نشعر بها، أو سلوكيات خاطئة هي نتيجة لتلك الأمراض، فبعضنا يُعظِّم غير الله تعظيمًا عاليًا غاليًا، وهناك مَن يعلِّق آماله بغيره، وفي صدورنا خوفٌ شديد لكن من غير الله، أليس البعض منا استحوذ عليه الشَّيطان، والبعض جرحه الشيطان، ولا زال الجرح يحتاج لعلاج، ويشكو البعض من الطمع الذي حَرَمه الطمأنينة والاستقرار، وبعضنا لديه قلقٌ، وهناك مَن أفسد الغضب حياته، ومِن بيننا مَن يعرف من نفسه البُعد عن الله بانفتاح باب الشهوات لديه، وآخرون فيهم ضعف يقين زعزع إيمانهم، وهناك مَن يطلب الفخر والكِبر والاستعلاء، والحسد موجود أيضًا، وأما الأمراض العقدية، فشأنها أشد خطرًا؛ كاختلال الولاء والبراء، ومحبة مَن لم يأمر الله بحبِّه، وبغض من أمر الله بمحبته، واختلال ميزان الإعجاب، وفوات قوله تعالى: ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ولا يزال مرض غياب فقه العبودية مرضًا فتاكًا بيننا، والغفلة والإعراض عن دين الله لا يتعلَّمه ولا يعمل به، وغير ذلك من أمراضنا، ومع هذا نحن نقرأ القرآن، فقارن بين نسبة الأشخاص





الذين قالوا: كان عندنا المرض الفلاني ثم بعدما قرأت السورة الفلانية وعرفت تفسيرها وجدت علاجي مذكورًا فيها، فعالجت نفسي وزال بحمد الله، قارن بين هذا وبين الذين يقرءون الآيات والسُّور وحالهم لم يتغيَّر، هل يعقل أن القرآن لم يغيِّر فينا شيئًا من أمراضنا؟!

الجهل بالله وأسمائه وصفاته من أشد الأمراض وعلاجه في كلِّ آية مــن كتاب الله، فهل نلاحظ تغيُّرًا فــي معرفتنا بالله؟ هل يستجد عندنا ـ كل مدة زمنية ـ معرفة اسم لربنا ثم ننشغل بطريقة التَعبُّد به؟ ثم نعرف صفة لله وننشغل بالتعبد بها؟ ثم يحملنا ذلك على الشَّوق لمعرفةٍ أكثرَ لأسماء سيدنا وولي أمرنا ﷻ.



ســورة الكهف التي نواظــب على قراءتهــا بحمد الله كل جمعة كم تعالج قضايا ســلوكية وأمراض مستعصية في قلوبنا وحياتنا؟! هل مرَّ بنا مَن قال بأنه تغيَّر وتشــافى بســبب سورة الكهف؟!

في ســورة الكهف ذَكَرَ الله ﷻ العديد من صفاته الجليلة مثل صفة: الضــرب والربط والإغفال والتصريف والإرســال والتعجيل والإهــلاك، وكل صفة هي ســبب لزيــادة الإيمان وعلاج لنواقضه ومنقصاته. إنَّ ضابط التأثر بسورة الكهف هو

زيادة الإيمـــان وتغيُّر الحال وزوال أمـــراض القلوب وحضور الدار الآخرة، وهو أثرٌ من آثار شـــهادة أن لا إلـــه إلا الله وأن محمدًا عبده ورســـوله، ولو تفرغت أســـرةٌ لفقه هذه الســـورة ومراجعة أمرها وشأنها كل أسبوع، لاســـتغنت بها عن غيرها، ولكان في هذه السُّورة شغلاً، ولقالوا كما قال الشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو لم ينزل الله من القرآن إلا سورة العصر لكفتهم».

فليس الشأن في حفظها وغيرها من السُّور الحفظ المجرد عن العمل، إنما الشـــأن في العمل بها، ومجاهدة النفس على ذلك، والاستغفار عما فات من النقص، وقد كان السَّلف يبقون مدة في حفظ الســـورة، فقد ذكر الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أنه بلغه أن ابن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلَّمها[1]، وثبت عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإســـناد صحيح أنه مكث أربع ســـنين في تعلُّم سورة البقرة[2]، فلماذا يا تُرى هذه المدة الطويلة؟! مع أننا نجزم أنه قادر على تعلُّمها وحفظها بأقل من ذلك بكثير.



إنَّ معرفة منهجية حفظ الصحابة يجيب على هذا السؤال، **ومنهجيتهم فـــي الحفظ**: هي أنهم كانوا إذا تعلَّموا العشـــر من

---

(١) الموطأ، (٤٧٩).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، (٤/ ١٦٤).

القرآن لم يتعلَّموا العشر التي بعدها حتى يتعلَّموا حلالها وحرامها وأمرها ونهيها[1]»، فالحفظ ـ إذن ـ كان مشروع صناعة عالمٍ عاملٌ، فالعمل مقدمٌ عندهم على الحفظ، ولهذا مات العديد من الصَّحابة رضي الله عنهم ولم يُتموا حفظ القرآن كاملاً، لكنهم جميعًا ماتوا وقد عملوا بالقرآن كلِّه، وإذا وُجد من الصَّحابة رضي الله عنهم من جمع بين حفظ القرآن كاملاً وبين العمل به أصبح في أعين الصحابة رضي الله عنهم من الأجلاء.

وابن عمر رضي الله عنهما يقول: «كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السُّورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن وإنَّ آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصَّبي والأعمى ولا يرزقون العمل به[2]»، وصدق رضي الله عنه بأن العمل بالقرآن رزق؛ حيث قال: «ورُزِقوا العمل بالقرآن».

ونتيجة لهذه المنهجية نجد أنهم يختلفون في مدة ختمهم القرآن، فالذي يختم في أسبوع مع هذه الطريقة يسمُّونهم الأقوياء كما قال مكحول رحمه الله : «كان أقوياء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرءون القرآن في سبع، وبعضهم في شهر،

(١) تفسير الطبري، (١/ ٧٤)، وفضائل القرآن للمستغفري، (٣٦١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، (١/ ٤٠).



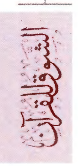
وبعضهم في شــهرين، وبعضهم في أكثر من ذلك»[1]. وقراءة القــرآن بطريقة الصَّحابــة رضي الله عنهم التي تجمع بيــن العلم والعمل والتدبُّــر والتفكُّر، ومع هذا ختمُ القرآن في أســبوع دليلٌ على التفرُّغ للقرآن، وعلى قراءتهم له على كلِّ أحوالهم.

والنســاء الصَّحابيــات كان لهن نصيبٌ من هــذا المنهج العجيب في قراءة القرآن وحفظه، فعَن عبد الوَهَّاب بن عَبَّادِ بن حمزة، عن أَبيه، عن جَــدِّهِ رضي الله عنه قال: «بَعَثَتْنِي أســماءُ رضي الله عنها إلى السُّــوقِ، وَافتتحتْ سُــورَةَ الطُّورِ فَانتهتْ إلى قوله: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، فذهبتُ إلى السُّوقِ ورجعتُ وَهِيَ تُكَرِّرُ: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾»[2].



وفي قصة نادرة يحدِّثنا بها جارُ ابن عبَّاس رضي الله عنهما ويصف لنا طريقة قراءة ابن عباس رضي الله عنهما للقرآن، يقول صالح مولى التَّوأمة: «كُنْتُ جَارًا لابنِ عبَّــاس رضي الله عنهما، وكان يتهجَّدُ مــن الليل، فيقرأ الآية، ثم يســكت قَدْرَ ما حدَّثُتك وذاك طويلٌ، ثم يقرأ، قلت: لأيِّ شيءٍ ذاك؟ قال: مِن أجل التَّأويل يفكِّر فيه»[3]، وكان يفعل

(١) الإتقان في علوم القرآن، (١/ ٢٧٨).
(٢) مختصر قيام الليل، ص(١٤٨).
(٣) المصدر السابق نفسه.



ذلك وهو في صلاة التهجُّد، فكيف يكون سكوته وتفكره في التأويل خارج صلاته، فالعبرة عنده بالمعاني والحكم التي تدفع القلب للعمل.

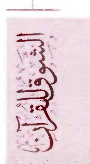
واستمر هذا المنهج عند التابعين كما قال محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه: «لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [الزلزلة: ١]، ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١] لا أزيد عليهما وأتردد فيهما وأتفكَّر أحبُّ إليَّ من أن أهذ القرآن هذًّا أو قال: أنثره نثرًا»[1]. ليس هذا على سبيل المبالغة بل يقولها ويتخذها منهجًا.



ويجب أن نعلم أن قراءة القرآن بفهم معانيه إنما تكون لأجل العمل به، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يغرركم مَن قرأ القرآن، إنما هو كلام نتكلَّم به، ولكن انظروا مَن يعمل به»[2]، وحملة القرآن ـ في عهد الصَّحابة ـ هُمْ: العالمون بأحكامه وحلاله وحرامه والعاملون به[3]، ولهذا اشتد نكير الصَّحابة رضي الله عنهم على مَن يَهُذُّ القرآن هَذًّا، ومَن يطلب آخر السُّورة.

---

(١) النشر في القراءات العشر، (١/ ٢٣٥).
(٢) اقتضاء العلم العمل للبغدادي، ص(٧١).
(٣) التذكار في فضل الأذكار، ص(١٩٦).

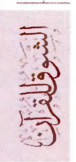


وهناك لطيفة في معنى التــلاوة: فالتلو أصل واحد في لُغة العرب بمعنى: الإتباع[1]، وإطلاقها على قراءة القرآن إشارة إلى أن القارئ الذي يتلو كتاب الله: هو الذي يقرؤه ويعمل بما فيه فيكــون تابعًا لــه، ومنه قولــه تعالــى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقــرة: ١٢١] أي: يقرءونــه ويعملون بما فيــه، فيكونون أتباعًا للقرآن، والقرآن لهم بمنزلة إمام يقتدون به[2].

فنلاحظ أن قارئ القرآن سُمِّي تاليًا؛ ليس لمجرد القراءة إنما للفهم وللتطبيق، فحتى المســمى لا يوجد فيه قراءة بدون فهم، وليس القصد إهمال حفظ القرآن والتزهيد فيه إلا أن المطلوب وضعه في مكان الصحيح، وحجمه الطبيعي، فلا يمكن للحفظ أن يتقدَّم على العمل، ووسيلة العمل هي الفهم والفقه.

ثم لا يفوتنا أن نبيِّن أن قراءة القــرآن عبادة من العبادات، والعبادات لهــا ظاهر ولها باطن، والباطــن هو جوهرها، وهو المقصود، فالصــلاة مثلاً إذا اعتُني بخشــوعها وأعمال القلب فيها، وعُمل فيها على طريقة السُّنة النبوية نفعت عند الله، أما إنْ كانت مظهرًا خارجيًّا فقط، تؤدى من خلاله حركات الجوارح

(١) معجم مقاييس اللُّغة، (١/ ٣٢١).
(٢) جمال القُراء، (١/ ٣١٣).



والقلب غافل لاهٍ، فليست بصلاة نافعة، وكذلك قراءة القرآن إنْ خلت عن روحها وهو فهم المعنى ومعرفة التفسير.

ولنعلم أن مرض أهل الكتاب أنهم تركــوا كتاب الله وراء ظهورهم، فهل المعنى أنهم جلســوا أمامــه وكان القرآن خلف ظهورهم؟ ليس المعنى كذلك، بل المعنى ما ذكره الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما إنه كان بين أيديهم ولكن نبـذوا العمل به»[١]؛ فهل نسير على خُطى أهل الكتاب في التعامل مع القرآن؟!

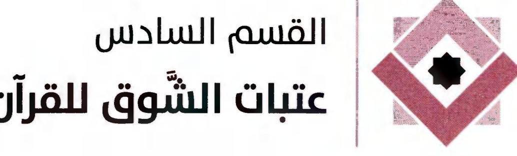


وما دام أننا خلصنا إلى أن العمل بالقرآن هو المقصود؛ فإنَّ تعليم القرآن ليس هو تحفيظــه فقط ـ وهو من أجلِّ الأعمال ـ إنما تحفيــظ حروفه وبيــان معانيه، ليــزداد المؤمــن إيمانًا، فقوله ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَــنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[٢] يشــمل تعليم المعاني وبيان أحكامه وحلاله وحرامه، فيشمل اللَّفظ والمعنى، كما أن صيغة (علَّم) المشددة تدلُّ على وجود مشقة وجهد في بذل ذلك، كما أن الحديث يشير إلى أن تَعْلِيمَكَ القرآن يكون على قَدْرِ تَعَلُّمِكَ مِنهُ.

(١) تفسير الطبري، (٦/ ٢٩٩).

(٢) صحيح البخاري، (٥٠٢٧).



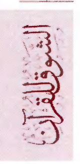


القسم السادس
عتبات الشَّوق للقرآن

أول عتبات الشَّوق للقرآن تعظيم الله:

وحتى نحسن تصور الشَّوق للقرآن؛ فلا بأس بضرب مثال واقعي من حياتنا ـ كثيرًا ما تكون حياتنا عِبرة لنا ومن حجج الله علينا ـ لو أن ورقة فيها كلام وقعت في يدك وقرأتها قراءة سريعة، فلم تجد ما يجعلك تتأنى فيها ثم تركتها، فأخبرك صاحبك أن هذا كلام رجل عجيب جمع ما لم يجتمع عند غيره، فجمع القيادة والريادة والفكر والبيان، وله تاريخ حافل، وبدأتَ تذكر له بعض قصص هذا الرجل، فما الذي سيحدث؟! ستمتد يدك مرة أخرى للورقة وستقرأها هذه المرة بقراءة متأنية، قراءة من يبحث عن الصفات التي سمعها ليتحقق منها، والعجيب أن جملاً قرأتها قبل بضع دقائق لم تشد انتباهك، وإذا بك تقرأها هذه المرة وترفع صوتك، وتبتسم طربًا لها، ما الذي حدث لك؟ إنَّ تعظيمك لهذا الكاتب بعدما أخبرك صاحبك عنه هو الذي جعلك تقرأ نصوصه بقراءة أخرى، فكذلك الحال مع القرآن.





لا يمكن للقلوب أن تشتاق للقرآن وهي لم تعظِّم الله، ولم تعرف قدره، فإذا عرفت القلوب الله معرفة إجمالية قرأت القرآن قراءة إجمالية، وإذا عرفت القلوب ربها بأسـمائه وصفاته زاد إقبالها على كلام مولاها الذي عرفـت صفاته، فإذا زاد تعظيم القلـوب لله والتعلُّـق به فرحـت بالقـرآن كما قـال تعالى: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعـد: ٣٦]، وأيضًـا يفرحـون بما يقرءون، فالقرآن مصدر فرح لتلك القلوب.

واسمع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهو يُعلِّم الطلاب القرآن ماذا يقول لهم؟ يقول: خُذها، فوالله لهي خيرٌ مما على الأرض من شيء[1]، كأني أحس بشعوره وهو يحاول أن يوصل الطالب إلى تعظيم القرآن وتعظيم المتكلم به.



فمَن أراد أن يشتاق للقرآن فليتزود من معرفته بالله وأسمائه وصفاته، والقرآن أحد مصادر هذه المعرفة، فاقرأ القرآن وأنت تبحث عن صفات سـيدك ومعبودك ومحبوبك، وكلُّ صفة أو اسـم تتعلَّمه ضعه في قلبك فـي مكانه اللائق بـه، فانظر إلى مرضٍ من أمراض قلبك وعالجه على ضوء هذا الاسم والصفة الربانيـة، وكل عمل من أعمال قلبك زده نـورًا من خلال هذا

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٥٢).



الاســم والصفة، فتعرف حينئذٍ قدر سيدك ولن توفيه قدره كما قال هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن الناس: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١].

لا تتوقع ـ أيُّها القارئ الكريــم ـ أن تتعلق بقراءة القرآن، وتفهم معناه وأنت لا تعرف شيئًا كثيرًا عن الله، ومن الخلل أن البعض لو أراد أن يعدِّد محبوبات الله ومبغوضاته وسُننه لما ذكر إلا القليل مع أنها مبثوثة في القرآن، ويقرُأها مع كلِّ صفحة.

إنَّ من الألــم أننا ندعي معرفتنا لأســماء الله وصفاته، مع غفلتنا عن كثير منها أثناء توسلنا إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الدُّعاء، فاسم الله الحســيب مثلاً كم مرة تضرعنا لله به؟! وكذلك اسمه المقيت والصمد والستير وغيرها؟!



ولو قلت: إنَّ عددًا من الصِّفات لــم تطرأ على بالنا مع أننا كنا أحوج ما نكون إليها مثل صفة الإفساح والتي ذكرها الله بقوله تعالى: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١]، فكم مرة كنا بحاجة إلى هذه الصفة تحديدًا، فلم نتعبد لله بهــا ولم نتضرع إليه بها، ولم ندعُ الله بها وهي صفته؟! مع أننا كنا في ظرف نحتاج أن يفسح الله لنا، ولا يملك الفســح لنا إلا الله، ومثلها صفة الســرعة لله والتي لا يخلو يوم من حاجتنا لها، فقد قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٢]، وكثيرًا ما يطرأ على أذهاننا اختصاص هذه



الصفة بالعقاب مع أنها صفة عامة تأتي للعقوبة وللمثوبة، وتعني: أن أفعاله تسرع فلا يبطئ منها شيء عما أراد؛ لأنه بغير مباشرة ولا علاج ولا كلفة، ولا تعسر عليه سبحانه حاجة»[1].

وكذلك صفة التأليف، كم مرة احتجناها لتستقر قلوبنا عما أشغلها مما يحتاج لتأليف كما قال تعالى عن صفته: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فلو كانت قراءتنا للقرآن قراءة واعية متأنية، قراءة علم وعمل هل تتوقعون أننا سنغفل عن هذه الصفة من صفات ربنا، ونحن نعالج يوميًّا أمورًا كثيرة تحتاج هذه الصفة الربانية العظيمة؟! في أسرتنا نحتاج تأليف الله، ومع طلابنا نحتاج تأليف الله، ومع زملائنا نحتاج تأليف الله، ومع مَن هو أعلى منها نحتاج التأليف أيضًا، ومع عباداتنا نحتاج أن يؤلف الله بيننا وبينها، وعلاقتنا مع القرآن تحتاج تأليف، فكان من الضروري أن ندعو الله بصفة التأليف.



وعسى الله أن يغفر لنا جهلنا بصفة الطَّوْل لله والتي قال الله فيها عن نفسه: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، لا يسعنا إلا أن نستغفر الله عن كلِّ لحظة قضيناها ونحن نجهل اسمًا وصفةً لله ذكرها الله لنا في كتابه وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) الوجيز في ذكر صفات ربنا القوي العزيز، ص(١٩٠).

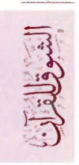


أرأيتم لماذا نقرأ القرآن ولم يحدث لنا قشعريرة الجلد؟! إننا بحاجة إلى أن تقرأ قلوبنا القرآن وليس أعيننا فقط، إنَّ للقلوب ألسنة فلتقرأ ألسنة القلوب القرآن مع لسان الفم، وإنَّ عين القلب هي التي تحرِّك العين الباصرة لتقرأ القرآن على مهل، وإنَّ لسان القلب هو الذي يدفع ألسنتنا لقراءة القرآن، بل إنَّ لذة الروح هي التي تجعل النفس تُقبل على قراءة القرآن، وهذا كلُّه لا يكون إلا بقراءة الفهم والتأني والمدارسة لآيات القرآن، فلا تقرأ القرآن لإرضاء نداء النفس الداخلي لتتخلص من ألم تأنيب الضمير، بل اقرأ القرآن قراءة مؤمن محب لربه يشتاق لكلامه، ويحمله الشَّوق لكلام ربه إلى الشوق للرؤية والنظر في الآخرة، فيتولد له شعور الشَّوق إلى لقاء الله كما قال النبي ﷺ: **«وَأَسأَلُكَ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ»**(١).

إنَّ الشَّوق لا يكون إلا لمن عرفته وخبرته وأحببته واطمأننت إليه، إنَّ القرآن يوصل إلى هذا الأمر؛ لأنه يُعرِّفك بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلى قدر معرفة الله تكون الخشية منه، وعلى قدر الخشية تكون المراقبة، كما في

---

(١) أخرجه النسائي في (السنن)، (٣/ ٥٤)، والحاكم في (المستدرك)، (١/ ٧٠٥)، وأحمد، (٤/ ٢٦٤)، وقال الهيثمي في (المجمع) (١٠/ ٢٨٠): «رجال ثقات».



الحديث: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعْصِيَتِكَ**»[1].

فإنْ قلتَ: عرفت أهمية تعظيم الله لتكون قراءتي للقرآن نافعة؛ فكيف الوصول إلى تعظيم الله؟ وما الطَّريق لذلك؟ وهذا ما أذكره لك الآن.

تحقيق الإيمان قبل قراءة القرآن:



ليس بين الإيمان والقرآن تعارضٌ حتى يُشَغِّب الشيطان عليك قبل أن تعيَ كلامي، إنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم ذكروا لنا شيئًا عجيبًا عن بداية حياتهم، فإذا عرفناه وطبَّقناه نكون سرنا على ما بدءوا به لنصل لبعض ما وصلوا إليه، روى جُنْدُبُ رضي الله عنه قوله: «كُنَّا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ غِلْمَانًا حَزَاوِرَةً، تَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا»[2]، فنلاحظ أنهم تعلَّموا الإيمان قبل القرآن؟ فكيف تعلَّموا الإيمان

---

(١) العودة إلى القرآن، ص(١٨).

(٢) ذكره البخاري في صحيحه تعليقًا في الإيمان (١/ ١٠٣)، ووصله ابن أبي شيبة في (المصنف)، (١١/ ٤٨)، وقال الألباني في التعليق على كتاب الإيمان لابن تيمية ص(٢١٢): «وقد وصله ابن أبي شيبة بسند صحيح عن عمار موقوفًا، وقد روي مرفوعًا وله شواهد كما قال الحافظ في (الفتح) (١/ ١٠٤)».



يا تُرى؟! وهل الإيمان يُتَعلَّم؟! وهل هناك مناهجُ أتدرَّج فيها لأتعلَّم الإيمان كما أتعلَّم فنًّا من الفنون؟!

إنَّ تعظيم الله لا يكون إلا من خلال الإيمان به، ثم تحقيق الإيمان به، فليس الإيمان مجرد الإقرار بربوبيته سُبحانهُ وتعالى، إنَّ التصديق بالله يعني التصديق بوجوده وأسمائه وصفاته وشرعه ودينه، والتصديق بوعده الذي وعد، والتصديق بوعيده الذي أوعد، إنَّ كلمة جندب رضي الله عنه هي مثل كلمة النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ..»[1]، ومثل قوله عليه السلام: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا»[2]؛ فهل هناك مَن يصوم رمضان وهو غير مؤمن؟! هذا السُّؤال يدلك على الفرق بين فهمنا للإيمان وفهم الصَّحابة رضي الله عنهم والجيل الفاضل؛ لأن المراد أن الدَّافع الذي جعلهم يصومون هو تصديقهم بإلهٍ عرفوا أسماءه وصفاته، وعرفوا وعده وثوابه الذي أعطاه لمن أطاعه، ووعيده وترهيبه لمن خالف أمره، فنتيجة لهذا التصديق الذي لا يخالطه شك أمسك عما تشتهيه نفسه من المفطرات، حبًّا لذلك الإله والرب الآمر، وطمعًا في ثوابه ورضاه، وخوفًا ووجلاً من عقابه، وهذا



(١) متفقٌ عليه: أخرجه البخاري، (٦٤٧٥)، ومسلم، (٧٤).

(٢) متفقٌ عليه: أخرجه البخاري، (٣٥)، ومسلم، (٧٦٠).



لا يكون إلا باســتحضار الله في القلب، واســتحضار اطلاعه وسمعه وعلمه بك ـ أيُّها العبد، فيحاول الشيطان أن تغفل عن هذا الاستحضار والمشاهدة القلبية، وهكذا تكون المعركة بين المؤمن وعدوه، فعدو الله يمس المؤمن بطائف، والمؤمن يتذكر ويتبصر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢].

إنَّ القرآن يحتاج إلى إيمان قبله، إيمانٌ بأن هذا كلام الإله الذي صدَّقتُ بوجوده، وصدَّقتُ بأسمائه وصفاته، وأوقنُ بأنه يتكلَّم أحلى كلام وأجمله، وأن كلامه أنزل هداية ونورًا، وأوقنُ بأني عبدٌ له مطيع مستسلم منقاد، ولا غني لي عنه طرفة عين، فاعتمادي وخوفي ورجائي وحبي كله له هو؛ لأنه المستحق له، فعلى قدر حضور العبودية في القلب يدخل الإيمان والتصديق بالله في القلب، وليس المراد بالتصديق الإقرار بوجود الله، وإنْ كان هذا هو أول التصديق، إنما المعنى أن هذا التصديق يقوده إلى التصديق بما وراء ذلك، من الإقرار بالتعبد له، والطاعة له وحده، والاستسلام لدينه وشرعه، فالحلال ما أحله الله الذي أنا مُصَدِق به، والحرام والممنوع ما مَنَع منه، وهكذا يزداد الإيمان شــيئًا فشــيئًا حتى يخالط نوره القلوب، فتنقاد الجوارح لذلك التصديق وتنبعث الإرادة، فيلهج اللسان بالذكر، وتنقاد الجوارح

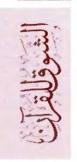




للصلاة التي هي دخول على الملك، ويصبح اســم الله محبوبًا عنده حتى إذا سمع المؤذن ترك كلَّ أشــغاله وأخذ يردد معه، وعلاه من المهابة والخشوع لهذا الإله الأكبر، الذي ينادي على الفلاح والصلاة، فإذا سكت المؤذن فلا تظننَّ أنه غفل بل تذكره بالله كلمة (**بِاسْمِ اللهِ**) أول الأكل والشُّــرب والدُّخول، وتذكره بالله كلمة (الحمــد لله)، وتذكره بالله كلمــة (**تَوَكَّلْنا عَلَى اللهِ**)، وتذكره بالله كلمة (**بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ وَضَعْتُ جَنْبِي**)، وتذكره بالله كلمة: (**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَما أماتَنا**)، ولا يزال يتذكر الله في كلِّ أحيانه، فيتولد عنده حُبٌّ يكبر ويعظم مع كل لحظة هو يذكر الله فيها ويستحضره.



وآثار ذلك ظاهرة عند المؤمن فــي توحيده لله كل أفعاله، فلا يريد إلا وجه الله، ولا يطلــب إلا ابتغاء رضوان الله، ويتبرأ من حوله وقوته؛ لأنه عبد ضعيف لا حول له إلا بإعانة الله له، فلا يزال يطلب العون من ربه، ويغلق منافذ الشــيطان وشِركِه على نفســه، فإذا حقَّق هذه العبودية فليقرأ القرآن حينئذٍ سَيَجد ولا بدَّ أنه قــد هُيِّئ له الموضــع، فنزل نور القــرآن على نور القلب، واجتمع نور الإيمان مع نور الفطرة، والله يهدي لنوره مَن يشاء.



إنَّ الصحابة رضي الله عنهم الذين أخبرنا عندهم جندب رضي الله عنه لما حقَّقوا الإيمان بالله قرأوا بعد ذلك القرآن، فوجدوا أن الله عرَّفهم بنفسه وأسمائه وصفاته وأفعاله وما يحبه وما يبغضه، وذكر لهم أممًا قبلهم، وحوادث بعدهم، فيقرءون ذلك قراءة مَن عَرَف مقصود إلهه، وعَرَف قَدْرَ نفسه هو، فيقرأ قراءة العبد المرتبط بسيده دون غيره، والمتلهف لكلام سيده المتعطش له، والناس في هذا أربع طبقات كما ذكرها ابن القيم رحمه الله: «أهلُ القرآن والإِيمان، وهُمْ أفضل الناس، والثانية: مَن عَدِمِ القرآن والإِيمان، والثالثة: مَن أُوتي قرآنًا ولم يُؤت إيمانًا، والرابعة: مَن أوتي إيمانًا ولم يُؤتَ قرآنًا»[1].

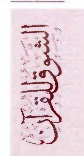


أردتُ أن أُبيِّن أننا بحاجة إلى برامج إيمانية تصاحب قراءتنا للقرآن لكي نتعلَّم الإيمان والعلم والقرآن، وإنَّ أولى البرامج هو فقه القرآن ومعرفة معانيه، فلا يوجد شيءٌ يعلِّمنا الإيمان مثل القرآن، وسأضرب لذلك مثالاً:

عند قراءة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] نتعلَّم أمورًا:

١ ـ ندرك أن القرآن الكريم ليس فيه شكٌّ ولا خللٌ ولا نقصٌ بوجه من الوجوه، فنزداد تعظيمًا لله المتكلم به،

(١) زاد المعاد، (١/ ٣٣٨).

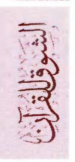


ونحمده على هذا القــرآن الكامل، ونقصر قلوبنـــا على حبِّه إذْ اختصنا بإنزال هذا الكتاب على هذا المستوى العالي، كما ندرك علو منزلة القرآن عند الله، ولهذا أشـــار له باســـم الإشارة الدال على بعد المنزلة ورفعتها (ذلك)، والله يحمد نفســـه على تنزيل القرآن كما قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١].

٢ ـ ثم نلتفت إلى أعمالنا لنصحِّحها على ضوء هذه الآية، فما كان من تكاسل في قراءة القرآن مثلاً، أو ذِكر لله، أو عبادة أو طاعة؛ فنقوِّمها بهذه الآية التي يســـتحثنا الله فيها على قراءة كتابه، ولهذا مدح كتابه وأثنى عليـــه لكي نَعَيَ ما يريده منا، ثم نَنطلق للقــرآن لنأخذ منه ما يريده الله منـــا؛ لأنه كتابٌ لا ريب فيه، ونستســـلم لأحكامه؛ لأنه لا ريب فيه، وننقاد لما طلبه الله منا ولمـــا نهانا الله عنه في هذا القــرآن؛ لأنه لا ريب فيه. ومن الأعمال التي تنتجها الآية الكريمة الإقبال على كلام الله تعلُّمًا وتعليمًا؛ لأنه كتاب لا ريب فيه، فلن ينقضي وقتك بظنون العلم التي قد تُنقَضُ في جيل من الأجيال.



٣ ـ ثم نعالج أمراض قلوبنا على ضوء هذه الآية، فمرض الشَّك والنفاق والاضطراب والريبة تُزال عند فقه هذه الآية، فما الذي يجعلك تشك وأنت ترى في الكون كله مصداق ما أخبر الله عنه في هذا الكتاب الذي لا ريب فيه، حتى في أخبار تلك

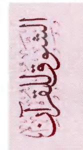


الأمم الغابرة نرى ما يشهد لها في واقعنا المعاصر، ونرى صدق أسماء الله وصفاته في الحياة، فآثار اسم الله الرحيم شاهدة نؤمن بها ونحن نرى أكثر أهل الأرض على غير دين الله، ومع هذا دارةٌ عليهم أرزاقهم، محفوظة لهم أجسامهم، يجازيهم الله بحسناتهم حسنات في الدُّنيا، أليست هذه آثار رحمة الله؟! ومن الأمراض التي تعالجها الآية الكريمة مرض الإعراض عن كلام الله، فكيف تعرض وهو كتاب لا ريب فيه؟!

٤ ـ وفي الآية توجيه للمؤمن لأن يطلب الهداية من خلال القرآن؛ لأنه لا ريب فيه، وأطلق الهداية هنا لتشمل كلَّ أنواع الهداية التي يحبها الله ﷻ، وأعلاها هداياتك للإيمان بالله، فالهداية تكون من خلال القرآن، هذا منصوص الآية، وما دام أن القرآن هدى؛ فمعنى ذلك أن آياته فيها أصول تلك الهدايات، فكلُّ ما يحتاجه المؤمن ليعرف مراد الله فيه، فسيجده في القرآن لأنه هدى، وهذا كلُّه يقود المؤمن القارئ للآية إلى طلب الهداية وحاجته لها أكثر من طلبه الطعام والشراب.



٥ ـ وفي ذكر المتقين في هذه الآية دلالة على الارتباط بين التقوى والقرآن، وأن الكتاب العزيز سببها، وأن المتقي متعلق بالكتاب العزيز مرتبط به، فالقرآن أورثه التقوى، والتقوى زادته هداية للقرآن، فيتعلَّم المؤمن منزلة التقوى ويعرض حاله عليها،



ويثير أسئلة على نفسه: هل وصل لهذه الدرجة؟ كم بقي دونها؟ وما العوائق التي تعيق عن الوصول لها؟ ما شــروط تحقيقها؟ وغير ذلك من الأســئلة التي لو أفنى عمره فيها وفي تحصيل أجوبتها علمًا وعملاً لما كان عُمُرُه خسارةً.

٦ ـ ثم يبحث القارئ للآية عن أسماء الله وصفاته المتعلقة بهذه الآية، فيجد أنها تتضمن الأسماء التالية:

• **اسم الله الحكيم**: الذي أحكم كتابه وكلامه وشرعه ودينه وأفعاله، فلن تجد فيها من فطور.

• **اسم الله العليم**: الذي وسع علمه كلَّ شيء، وأنزل كتابه على علم سبحانه، وأودع فيه العلم به وبأسمائه وصفاته.

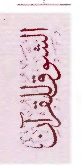


• **اســم الله الهادي**: الذي يهدي مَن يطلــب الهداية، ويُقرُّ ويعترف بكونه ضالاً إنْ لم يهده الله.

٧ ـ ثم يبحث في أعمال القلوب من خلال الآية الكريمة، فيجد الأعمال التالية:

• **المحبة**: التــي تجعل القلب يتجه لمحبــة مَن أنزل عليه كلامه هداية له، ولم يتركه هملاً.

• **الهداية**: والتي تعني الدلالة، فالقلب يطلب هدايته، وهو ضال إنْ لم يهده الله.



• **التقوى**: وهي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية.

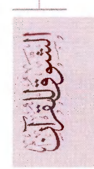
• وغير ذلك من أعمــال القلوب، حتى يصبح عندك قناعة أن هذه الآية تليق أن تكون أول آية في القرآن، وكأن الله يباهي بكلامه ﷻ، فيجاهد العبد نفسه على العمل والاجتهاد والصَّبر والمصابرة.

اختلاف مشاعر القلب مقصود للقرآن:

في سورة واحدة من القرآن تجد أنوعًا من تسليط المشاعر على القلب، فتجد في السُّــورة تخويفًا من يوم الحســاب، ثم آيات فيها تشــويق للجنة، وآيات فيها اســتثارة لمحبة الله في القلب، وآيات أخــرى فيها خضوع وفقر العبــد، وآيات يكاد القلب يطير من الفرح بها، وآيات في أسماء الجلال لله، وبعدها بآيات أســماء الهيبة والســلطان لله، ثم آيات فيها صفات الله، وهكذا تتنوع الآيات ذات الأثر.



هذه الآيــات وغيرها تفعل في القلــب فعلها؛ حيث تتنوع المثيرات على القلب حين قراءتها، ومــع دوام القراءة تتحول إلى أحوال القلب يعيشــها القلب، ثم تتمكــن منه حتى تكون مقامات ثابتة للقلب، وهذا يكون بكثرة القراءة والتدبُّر والتفكُّر عند ذلــك تتحول تلــك المشــاعر إلــى إرادات وأعمال في



الجوارح؛ فشعور الفقر والخضوع الذي أحس به حين قراءة آيات عظمة الله أورثه ـ مع المداومة على القراءة ـ استعانةً بالله وتعليق الآمال به، وطلب العون منه وحده.

وفي هذه الحالة ليس أمام الشيطان إلا التعاون مع النفس ليقنعها أن تستوفي شهواتها، فتتثاقل عن الطاعة وتتكاسل عنها، فتبدأ معركة بين الشيطان ومعه النفس أمام القلب ومعه الإرادة، والإرادة هي التي تحرِّك الجوارح، فعلى قوة الإرادة يكون انبعاث الجوارح، فتكون الغلبة للأقوى منهما.



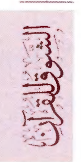
وهذا يستدعي أن يكثر المؤمن من قراءة القرآن، ويكون ذلك بالتفرغ للقرآن، وإعطائه المساحة الكبرى من اليوم، وقد أمر النبي ﷺ بقراءة القرآن وجعل لذلك شرطًا في قوله: «**اقْرَأُوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ، فَقُومُوا عَنْهُ**»[1].

واختلف العلماء في معنى الحديث، ومن الأقوال التي ذكرت ما يلي: داوموا على قراءته ما دامت قلوبكم تألف القراءة، فإذا اختلفتم بأن صارت قلوبكم في فكرة شيءٍ سوى قراءتكم وصارت القراءة باللسان مع غيبة الجنان، يعني صار القلب مخالفًا للسان، فقوموا عنه واتركوا قراءته حتى ترجع قلوبكم[2].

---

(١) متفقٌ عليه: البخاري، (٤٧٧٤)، ومسلم، (٦٩٤٩).

(٢) مرقاة المفاتيح، (٧/ ٢٦٤).



للحديث معانٍ أخرى تدلُّ على أن الشيطان يعرض بعض الشـبهات لقارئ القرآن، ويضرب بعض الآيات ببعض ليُلبِّس على قلب القارئ، فإذا أحس القارئ من ذلك بشيءٍ؛ فليعالج قلبه بأن يفوت الفرصة على الشيطان ويقطع القراءة؛ لئلا يستمر الشيطان في إلقاء الشبهات.

وكلُّ المعاني التي قيلت في الحديـث تأمر بالإقبال على قراءة القرآن، وعمـران الوقت به، والتحذير مـن القراءة التي لا يفهم القارئ معناها، أو لا يتفاعل معها، حتى أنه إذا مرَّ بآية رحمة لم يسأل الله الرحمة، وإنْ مرَّ بآية عذاب لم يستجر بالله من عذابه.

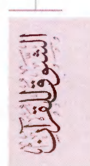


تَغَنُّوا بالقُرآنِ وتَقَنَّوه:

جاءت الوصية في الأثر المرسل بالتغني بالقرآن، فقد جاء في الأثر عن المُهَاصِرِ الزبيري رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ، لَا تَوَسَّدُوا الْقُرْآنَ، وَاتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَغَنُّوهُ وتَقَنَّوه، وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**»(١).

---

(١) فضائل القرآن لابن كثير، ص(١٨٥)، وقال ابن كثير: «مرسل».



وقد أوضح أبو عبيد معنى (تغنوه) فقال: «أي: اجعلوه غناءكم من الفقر، ولا تعدوا الإقلال معه فقرًا، ومعنى (وتقنوه) أي: اقتنوه كما تقتنوا الأموال، واجعلوه مالكم»[1].

وفي هذا لفتةٌ تربويةٌ بأن صاحب القرآن المُعلِّم له والمتعلم عليه ألا يَعد جلوسه للقرآن وتعليمه إهمالاً لطلب الرزق، فليست المقارنة مادية من كلِّ وجه، بحيث نعتبر أن الجلوس في المسجد لتعليم القرآن، أو اختيار تخصص القرآن وعلومه في الجامعات ـ يُعد طريقًا من فوات فرص العمل وتحصيل الرزق، فقد أوضح التابعي المهاصر رضي الله عنه أن القرآن فيه الغنى ويصلح للاقتناء، وليس هذا بكثير على القرآن، فالأرزاق مفاتيحها الطاعات وعلى رأسها كلام الله الذي تفتح به المغاليق، ولا زالت حياة أهل القرآن زاخرة بالقصص التي رُزِقوا من خلال تعليمهم القرآن، وقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «**أَحَقُّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ**»[2].

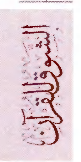


وعثمان رضي الله عنه عُرف بقراءة القرآن من بين الصَّحابة رضي الله عنهم وقد فُتحت له الأرزاق والثروات والخلافة وغيرها، فعمل فيها بما أمره القرآن، فرضي الله عنه من إمام.

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٦٩).

(٢) صحيح البخاري، (٥٧٣٧).



والقصد أن نصحِّح مفهــوم الغِنى، فمَن تعلَّــم القرآن أو علَّمه أو حفظه وعمل بما فيه، فهو الغني حقًّا، ومع هذا؛ فأهل القرآن أحق الناس بأن يبذل لهم ما يعينهم على أداء رسالتهم.

عددُ دَرَجِ الجنةِ:

مما يُرغِّب في قراءة القرآن وتحصيله حفظًا وقراءةً ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قولها: «**إِنَّ عَدَدَ دَرَجِ الْجَنَّةِ بِعَدَدِ آيِ الْقُرْآنِ، فَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ مِمَّنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلَيْسَ فَوْقَــهُ أَحَدٌ**»(١)، وفي رواية: «**فَمَنْ قَرَأَ ثُلُــثَ الْقُرْآنِ ثُمَّ دَخَــلَ الْجَنَّةَ كَانَ عَلَــى الثُّلُثِ مِنْ دَرَجِهَا، وَمَنْ قَرَأَ نِصْفَ الْقُرْآنِ كَانَ عَلَــى النِّصْفِ مِنْ درجها، وَمَنْ قَرَأَهُ كُلَّه كَانَ فِي عِلِّيِّين، لَمْ يَكُــنْ فَوْقَهُ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ**»(٢).



وقد صحَّ مثل ذلك عن الضَّحاك رضي الله عنه قوله: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ: عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمْ وَأَهَالِيَكُمُ الْقُــرْآنَ؛ فَإِنَّهُ مَنْ كَتَبَ اللهُ عز وجل لَهُ مِنْ مُسْــلِمٍ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا قِيلَ لَهُ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ**

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيــد، ص(٩)، وأخلاق حملة القــرآن للآجري، ص(٤٨).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٣٧)، وابن أبي شــيبة، (١٠/ ٤٦٧)، وفيه مِعْقَسُ بْنُ عِمْرَانَ.

حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى عِلْمِهِ مِنَ الْقُرْآنِ»[1]، وله شاهدٌ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وارْقَ ورَتِّل كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**»[2]، والحديث يحتمل أنه لحافظ القرآن العامل به، ويحتمل أنه للقارئ العامل بالقرآن والمتَّبع له[3]، وليس المقصود بالعمل بالقرآن ألا يخرم منه أيةً، بحيث إنه عامل بكلِّ لفظ في القرآن، فهذا مما يصعب والله المستعان، لكن حسب العبد أن الله يغفر الصغائر بالمكفرات كالصلوات والجمعة وغيرها إذا تقبَّلها الله، وإنما القصد هو مجاهدة النفس على العمل بأحكام القرآن مع الاستغفار عن النقص والذُّنوب.



حضور اليوم الآخر في القرآن كلِّه:

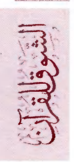
اليوم الآخر مذكور في القرآن كلِّه، من أوله إلى آخره، ولم يُذكر شيءٌ يساويه في كثرة الآيات الدالة عليه، وبالمقابل حذَّرنا

---

(١) سنن سعيد بن منصور، (١/ ٥٩)، وقال محققه: «صحيح عن الضحاك».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في (المسند)، (٢/ ١٩٢) واللفظ له، وأبو داود، (١٤٦٤)، والترمذي، (٣٠٨١) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن حبان في صحيحه، (٧٧٦)، وله طرق بمجموعها صحيح، انظر: تحقيق سنن سعيد بن منصور، (١/ ٦٣).

(٣) تحفة الأبرار، (١/ ٥٣٢).



من التعلُّق بالدُّنيا، وأعطانا معادلة فيها الميزان والعدل، فالقرآن يريد ألا نتعلـق بالدُّنيا مع أمره لنا باسـتغلالها والتسـابق في مرضاة الله، وهذا التوازن كبيرٌ إلا على الخاشـعين، فعلى قدر أعمالنا في الدُّنيا تكون درجاتنا في الآخرة، فمَن ذا الذي يفرط في الدُّنيا بعد ذلك؟!

اليوم الآخر سُـمِّي في القرآن بأسـماء كثيرة، منها: اليوم الآخر، والآزفة، ويوم البعث، ويوم التغابن، ويوم التلاق، ويوم التناد، ويوم الجمع، ويوم الحسـاب، والحاقة، ويوم الخلود، ويوم الخـروج، ويوم الدِّين، والسَّـاعة، والصَّاخـة، والطَّامة، والغاشـية، ويوم الفصل، ويوم الفتح، ويوم القيامة، والقارعة، والواقعة، ويوم الوعيـد[1].. يا تُرى على ماذا تـدلُّ كثرة هذه الأسماء؟! فما رأيكم بقراءة القرآن التي لا يلاحظ القارئ فيها الدار الآخرة؟! نسأل الله أن يعفو عنا.



مشـاهد الدَّار الآخرة في القرآن لها وقعٌ على القلب عظيم، ولو كانت قلوبنا سليمة لتوقفت عند قول الله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] أي: كان قدر ذلك اليوم الذي

(١) الحياة الآخرة ما بين البعث إلى دخول الجنة أو النار، (١/ ٤٥).



فُرغ فيه من القضاء بينهم قدر خمسين ألف سنة[1]، فمعنى ذلك أن الناس سيقفون في عرصات يوم القيامة خمسين ألف سنة!! لا أعلم لماذا وأنا أقرأ الآية كأن العدد ذُكر على سبيل المبالغة، أو أنه غير مقصود لذاته، وإلا فإنَّ هذا الرَّقم مذهل جدًّا، ولو آمنا بها حقيقة الإيمان لتحللنا من المظالم، وأقبلنا على طاعة الله، خمسين ألف سنة مَن يقدر على وقوفه إلا أن يخففه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

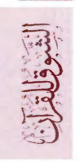
إنَّ الذي حذَّر القرآن منه هو التعلُّق والاغترار بها، وقد قال السَّلفُ: «حُبُّ الدُّنيا رأسُ كُلِّ خطيئةٍ»[2]، فقهوا ذلك من القرآن، والقرآن يقرِّر أن كلَّ ما في هذه الدُّنيا إنما هو ابتلاء واختبار وضعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده ليتوصلوا به إلى رضا ربهم، فكلُّ ما حولنا من العالم العلوي والسفلي وما في أنفسنا وغيرها إنما هي وسائل توصلنا إلى معرفة الله وخشيته ومحبته، ليستعين بها المؤمن في عبادته لربه، فالكون يوصل المؤمن إلى تعظيم الله وتقديره، فمَن استغل ذلك أفلح في ابتلائه، ومَن لم يرفع به رأسًا خسر في ابتلائه كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ



---

(١) تفسير الطبري، (٢٣/ ٢٥١)، وهو أحد القولين في الآية، والقول الثاني: أن هذا مقدار صعود الملائكة من الأرض إلى السَّماء السَّابعة.

(٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة، (٣/ ٣٧٠).



﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]، فالعبرة في كيفية التعامل الصحيح مع ما حولنا من معطيات الدُّنيا، إنَّ العبودية هي أن نتعبد لله ونتذلل له حسب ما قدَّره لنا، فيكون الابتلاء والعافية والغنى والفقر إنما هي ميدان لنتعبد لله من خلالها. إنَّ عبادة الصَّحابة رضي الله عنهم كانت تتماشى مع يومياتهم، فإنْ أصابوا مالاً سخَّروه ليقربهم إلى الله، وإنْ فاتهم المال سخَّروا ظرفهم ليقربهم إلى الله، فلهم مع الفقر عبودية، ومع الغنى عبودية، ومع السلم عبودية، وفي الحرب عبودية، وعبودية حال العافية وعبودية حال المرض.

ومع هذه الحال يزيِّن الشَّيطانُ لنا الدُّنيا في أعيننا ويُنسينا الغاية التي خلقنا لها، كما قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧].

وتعلن نتيجة هذه الحرب يوم الحساب، ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ [القارعة: ٦ ـ ١١]، وقد أعاد القرآن وزاد في ذكر يوم الحساب ومشهده



وفظاعة موقفه وشـــدته، وتخلي كل أحد عن أحد كما قال: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار: ١٩].

فقارئ القـــرآن إنْ لم يتمثَّل اليوم الآخـــر أمام عينيه، وفي حياته بعدما ينتهي من قراءة القرآن، فلم يستفد من قراءته؛ لأن هذا من مقاصد القرآن الكبرى.

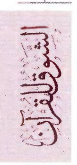
من عجائب طرق القرآن: أنـــه يكرِّر الموضوعات كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾ [الفرقـان: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الإســراء: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ ﴾ [طه: ١١٣].



تصريف الآيات: أي كرَّرناه بأســاليب مختلفـــة، وأكثرها تكرارًا صور اليـــوم الآخر، والتعريف بالله ورســـله وملائكته؛ فالمفترض أن ينتبه قارئ القرآن لهذا التنوع فيزداد تفكُّرًا وتدبُّرًا وإيمانًا، ولا أحســـب هذا التصريف والتنويـــع للمواضيع إلا لينتقل العبد المؤمن من التصور الصَّحيح إلى اليقين الرَّاسخ.

التفنُّن في قراءةِ الوِردِ:

جَلَسَ معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما، وهما مَن هُمَا في قراءة القرآن، أحدهما أعلم النَّاس بالحلال والحرام من



خلال القرآن، والآخر أُوتي مزمارًا من مزامير آل داود، فسأل كلٌّ منهما صاحبه عن طريقته في قراءة القرآن، فقال أبو موسى رضي الله عنه: «أتفوَّقُه تفوُّقَ اللَّقُوح»[1]، وقال معاذ رضي الله عنه: «أَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَأَقُومُ وَقَدْ قَضَيْتُ كَرَاي، فَأَقْرَأُ مَا كُتِبَ لِي، فَأَحْتَسِبُ فِي نَوْمِي كَمَا أَحْتَسِبُ فِي قَوْمَتِي»[2].

فكلٌّ واحد منهما اتخذ طريقة تناسبه، فمعاذ رضي الله عنه أكمل، وأبو موسى رضي الله عنه أشمل لأجزاء الليل والنهار، ولم يعب أحدهما على الآخر، ونبَّه معاذٌ رضي الله عنه إلى أن النية تعوِّض ما كان من نقص، فمَن احتسب الأجر في نومته بأن ينوي بها الاستعداد للطاعة والتقوِّي عليها، كُتِبَ له ذلك كما يكتب سائر أعماله.



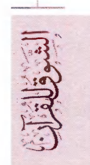
وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما يقرأ ورده أول الليل، وكان الحسين رضي الله عنه يقرأ ورده آخر الليل، وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ وردها على سريرها، وكان أحدهم إذا بقي عليه من حزبه شيءٌ فنشط قرأه بالنهار، أو قرأه من ليلة أخرى، وربما زاد أحدهم[3].

---

(١) أي: لا أقرأ وردي من القرآن مرة واحدة، وإنما أقرأه شيئًا بعد شيءٍ آناء الليل والنهار، مأخوذٌ من فُواق الناقة بأن تُحلب ثم تترك ساعة حتى تدر ثم تحلب. انظر: فتح الباري، (١/ ١٧٠).

(٢) صحيح البخاري، (٤٣٤١).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١٨٧).



وبلغ بهم حفظ الوقت بالقرآن إلى أن الرجل إذا خرج للخلاء البعيد ثم رجع يقرأ القرآن أثناء رجوعه وقبل أن يتوضأ، كما حدث لابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم[1].

ومرةً استأذن عبد الرحمن بن عبد القاري رضي الله عنه على عمر رضي الله عنه بالهاجرة في وقت الحر، قال: «فحبسني طويلاً ثم أذن لي، واعتذر بأنه كان في قضاء وِرده»[2].

وكان ثابت البناني رضي الله عنه يقول ـ محفزًا همة أصحابه: «ما تركت في مسجد الجامع سارية إلا وقد ختمتُ القرآن عندها»[3].



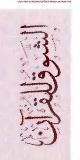
والذي اتفقوا عليه جميعًا على وجود حزب وورد من القرآن يحافظ عليه العبد، وقد خفَّف الله جل جلاله عن المسافر والمريض والمجاهد بأن يقرأ ما تيسر من القرآن كما في آخر سورة المزمل، قال تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠].

وكثيرًا ما يعترض الشَّيطانُ العبدَ المؤمنَ في أداء وِرده، فإنْ أطاعه اعترض له في وقت القضاء أيضًا فأثقله عليه،

(١) المصدر السابق، ص(١٨٦).

(٢) المصدر السابق، ص(١٨٥).

(٣) حلية الأولياء، (١/ ٤٠٤).

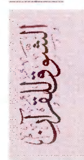


وأشغله بغيره حتى يفوت ثم يعتاد الفوت، وأحيانًا ينشغل المؤمن ببعض الأعمال الصالحة من دعوة وعلم بحيث تأخذ وقته وتستوعبها، ولا بأس بذلك إلا أن مكمن الخلل هو استفراغ الأعمال للوقت كلّه على حساب القرآن، مع أن القرآن هو زاد الدَّاعي إلى الله، وعلى قدر أخذه من القرآن تكون أعماله، وبهذا ينبغي أن ينظر الدَّاعية للقرآن على أنه مصدر إمداد له، كما هو سلوك النبي ﷺ، فمع كثرة أعماله إلا أنه يحافظ على قراءة حزبه، وأحيانًا يسمعه من غيره بتدبُّر وتأمُّل وتفكُّر.

فخامة الختمة:

لحظةُ ختم القرآن سواء حفظًا أو قراءةً لحظةٌ مباركةٌ، وفيها من الفخامة ما يليق باهتمام المؤمن بها، وقد جاء عن السَّلف أن الرَّحمة تنزل عند ختمة المصحف[1]، وكان أنس بن مالك رضي الله عنه يجمع أهله عند ختم القرآن يدعو بهم[2]، وبعضهم كان يسجد شكرًا، وبعضهم يصلي ركعتين يدعو

(١) مصنف ابن أبي شيبة عن مجاهد، (٣٠٦٦٣) بسند صحيح عنه.
(٢) المصدر السابق، (٣٠٦٦١)، وسنده صحيح عنه.



فيهما، ومن اهتمام السَّــلف أنهم كانوا يختارون الوقت الذي يختمون فيه، فإذا أراد أحدهم أن يختم من النهار أخَّره إلى أن يُمسي؛ لما جاء عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه موقوفًا عنه: «إِذَا وَافَقَ خَتْمُ الْقُرْآنِ أَوَّلَ اللَّيْلِ، صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُصْبِحَ، وَإِنْ وَافَقَ خَتْمُهُ آخِرَ اللَّيْلِ، صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُمْسِيَ، فَرُبَّمَا بَقِيَ عَلَى أَحَدِنَا الشَّيْءُ فَيُؤَخِّرُهُ حَتَّى يُمْسِيَ أَوْ يُصْبِحَ»(١)، فكانوا يؤخِّرون الختم؛ ليحصلوا على أتمِّ الأجر.

وداوم الصَّحابــةُ الكِرامُ رضي الله عنهم والتَّابعون علــى ختم القرآن، وملئوا به أوقاتهم حسب قدرتهم واستطاعتهم، فابنُ مسعودٍ رضي الله عنه كَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ مِنَ الْجُمُعَةِ إِلَى الْجُمُعَةِ(٢).



وكان علقمــةُ رحمه الله يختــم القــرآنَ فــي كلِّ خمــسٍ، والأسودُ رحمه الله يختمه في كلِّ ستٍ، وعبد الرحمن بن يزيد رحمه الله يختمه في كلِّ سبعٍ(٣)، وأُبي بن كعب رضي الله عنه كان يختم القرآن في

(١) سنن الدارمي، (٣٨١٢)، وقال: «هذا حسنٌ عن سعدٍ».

(٢) أخرجه البيهقي في (الشعب)، (٢٠٥٥)، وسعيد بن منصور في (السنن)، (١٥٠)، وقال المحقق (٢/ ٤٥٢): «سنده رجاله ثقات».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، (٢/ ٥٠١)، وسعيد بن منصور في (السنن)، (١٥٢)، وقال المحقق (٢/ ٤٥٥): «سنده صحيح».



كلِّ ثمانٍ، وتميم الداري رضي الله عنه يختم في كلِّ سبعٍ[1]، وعثمان بن عفان رضي الله عنه يختم في ركعةٍ كما أخبرت عنه زوجته[2].

وحين يكون الوقت كلُّه للقــرآن يُلان لصاحبه القراءة، ألا ترون ليونة ســورة الكهف على ألســنتنا يوم الجمعة، وبعض السَّــلف أُلين لهم القرآن لكثرة قراءتهم وقوة حفظهم له، فقد تواتر عن الشَّافعي رحمه الله ختمه القرآن في رمضان ستين ختمة، وحريٌّ بمَن سَــمِعَ ذلــك أن يفعل كمــا فعل الإمــام الثبت أبو بكر بن الحداد رحمه الله قال: «أخذتُ نفسي بما رواه الرَّبيعُ عن الشَّافعي، أنه كان يختم في رمضان ستين ختمةً، سوى ما يقرأ في الصَّلاة، فأكثر ما قَدَرْتُ عَليه تسعًا وخمسين ختمةً، وأتيت في غير رمضان بثلاثين ختمةً»[3].



(١) أخرجه البيهقي في (الشعب)، (١٩٨٦)، وسعيد بن منصور في (السنن)، (١٥٤)، وقال المحقق (٢/ ٤٥٦): «سنده رجاله ثقات إلا أنه منقطع بين أبي قلابة وأُبي، والواسطة بينهما أبو المهلب».

(٢) أخرجه ابن ســعد فــي (الطبقــات)، (٣/ ٧٦)، وســعيد بن منصور في (الســنن)، (١٥٨)، قال المحقــق (٢/ ٤٧٧): «بمجمــوع الطرق يكون الحديث صحيحًا لغيره».

(٣) سير أعلام النبلاء، (١٥/ ٤٤٧).

وقد كان ختمُ القرآن ثقافةً عامةً لمجتمع المؤمن مع مجاهدة على العمل به، ولهذا لا تستغرب إذا عرفت أن الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يختم في ثلاثٍ، وله في رمضان أكثر من عشر ختماتٍ[1]، ولا عجب لأنه موقنٌ بأن هذه الختمات زادٌ له على إدارة شئون بلاده، والمأمون رَحِمَهُ ٱللَّهُ كذلك قيل أنه ختم ثلاثًا وثلاثين ختمة في رمضان[2]، ومثل هذا العدد دليلٌ على علاقة مع القرآن في غير رمضان.

ومن أشهر الختمات ختمةُ المحدِّث شيخ الإسلام في زمانه أبو بكر بن عياش رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد حضرته الوفاة، فبكت أختُهُ، فقال لها: «ما يبكيكِ؟! انظري إلى تلك الزاوية، فقد ختم أخوكِ فيها ثمانية عشر ألف ختمة»[3]، وهذا من ثمرات العمل الصَّالح أنَّ صاحبَهُ يُرزقُ الطمأنينة في اللَّحظات الحرجة، ومنها سكرة الموت ـ أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يهوِّنها علينا جميعًا.



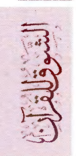
فإنْ تقاصرت الهمة عن ختمات أبي بكر بن عياش رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فهناك عبد الله بن إدريس الأودي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الإمام، الحافظ،

---

(١) المصدر السابق، (٤/ ٣٤٧).

(٢) تاريخ بغداد، (١٠/ ١٩٠).

(٣) سير أعلام النبلاء، (٨/ ٥٠٤).



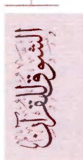
المقرئ، القدوة، شيخ الإسلام، بكت ابنتُهُ أيضًا عند احتضاره، فقال: «لا تبكي يا بُنية، فقد ختمت القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة»[1]، وبعض العلماء أجاز ختم القرآن بأقل من ثلاث باعتبارات خاصة ذكرها أهلُ العلم[2].

أما ختمُ القرآن في رمضان؛ فهذا متواتر عندهم، فالإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يختم في رمضان في النَّهار كلَّ يوم ختمة، ويقوم



(١) المصدر السابق، (٩/ ٤٤).

(٢) قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه على (صحيح مسلم)، (٨/ ٤٢): «وَقَدْ كَانَت لِلسَّلَفِ عَادَاتٌ مختلفةٌ فِيمَا يَقرءونَ كُلَّ يَوْمٍ بِحَسَبِ أَحْوَالِهِمْ وَأَفْهَامِهِمْ وَوَظَائِفِهِمْ، فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَخْتِمُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ، وَبَعْضُهُمْ فِي عِشْرِينَ يَوْمًا، وَبَعْضُهُمْ فِي عَشَرَةِ أَيَّامٍ، وَبَعْضُهُمْ أَوْ أَكْثَرُهُمْ فِي سَبْعَةٍ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي ثَلَاثَةٍ، وَكَثِيرٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَبَعْضُهُمْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، وَبَعْضُهُمْ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ثَلَاثَ خَتَمَاتٍ، وَبَعْضُهُمْ ثَمَانَ خَتَمَاتٍ وَهُوَ أَكْثَرُ مَا بَلَغَنَا، وَقَدْ أَوْضَحْتُ هَذَا كُلَّهُ مُضَافًا إِلَى فَاعِلِيهِ وَنَاقِلِيهِ فِي كِتَابِ (آدَابِ الْقُرَّاءِ) مَعَ جُمَلٍ مِنْ نَفَائِسَ تَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ، وَالْمُخْتَارُ أَنَّهُ يُسْتَكْثَرُ مِنْهُ مَا يُمْكِنُهُ الدَّوَامُ عَلَيْهِ، وَلَا يَعْتَادُ إِلَّا مَا يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّهِ الدَّوَامَ عَلَيْهِ فِي حَالِ نَشَاطِهِ وَغَيْرِهِ، هَذَا إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ وَظَائِفُ عَامَّةٌ أَوْ خَاصَّةٌ يَتَعَطَّلُ بِإِكْثَارِ الْقُرْآنِ عَنْهَا، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ وَظِيفَةٌ عَامَّةٌ كَوِلَايَةٍ وَتَعْلِيمٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ فَلْيُوَظِّفْ لِنَفْسِهِ قِرَاءَةً يُمْكِنُهُ الْمُحَافَظَةَ عَلَيْهَا مَعَ نَشَاطِهِ وَغَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ إِخْلَالٍ بِشَيْءٍ مِنْ كَمَالِ تِلْكَ الْوَظِيفَةِ، وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ مَا جَاءَ عَنِ السَّلَفِ وَاللهُ أَعْلَمُ».



بعد التراويح كلَّ ثلاثِ ليالٍ بختمة[1]، وكثيرٌ منهم في تراجمهم يختمون في رمضان كثيرًا[2].

وإذا كان المؤمن يفرح بفطره إذا أفطر، فإذا ختم كلام ربه فرح بختمه، وإذا كانت الملائكة تحضر عند قراءة المؤمن القرآن فتحضر عند ختمته، وللختمة فرحة سرور هي من الجزاء العاجل للمؤمن.

وهناك لذة أخرى يعرفها الحافظ المتقن وهو الانتهاء من وِرده بدون خطأ، وصلاته بما يحفظه من قرآن بدون أخطاء. قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنتُ أتحدَّى النَّاس بحفظ القرآن حتى صليتُ خلف مسلمةَ بن مخلَّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فافتتح البقرة فما أخطأ فيها واوًا ولا ألفًا».



ولذة أخرى يجدها معلِّمُ القرآن حينما يُزيِّنُ الطالب صوتَهُ بالقرآن ولا يخرم منه حرفًا، ولما قرأ علقمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على شيخه عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في حلقة التحفيظ، فأُعجب بصوته وحفظه، فقال له: «رَتِّلْ فداك أبي وأمي»[3]، ففداه بأبيه وأمه حينما سمع القرآن بترتيل.

---

(١) سير أعلام النبلاء، (١٢/ ٤٣٩).

(٢) المصدر السابق، (١٢/ ١٠٩)، (٢١/ ٢٦٦)، (٢١/ ٤٧٠)، (٢٣/ ١٢)، وغيرها كثير.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة، (٣٠٧٧٨)، وهو حسن مقطوع.

وكانت هناك ظاهرة غريبة في عهد المتقدمين من السَّلف الصَّالح وهي أن بيوتهم لها دَوِيٌّ بالقرآن، ولأجل أن تعرف الدَّوِيَّ هو أشبه ما تسمعه يوم الجمعة في المسجد أثناء قراءة المصلين للقرآن من غير أن يشوِّش أحدهم على الآخر، فكان جميع أهل البيت يقرءون القرآن، فإذا خرجوا من بيوتهم رأيت آثار القرآن على سلوكهم وبَيْعهم ومعاملتهم وجهادهم ودعوتهم وسائر شئونهم، ولهذا لما تغيَّر ذلك قليلاً قال أبو الأحوص رضي الله عنه: «إنْ كان الرجل ليطرق الخباء فيسمع فيه كدَويِّ النَّحل، فما لهؤلاء يأمنون ما كان أولئك يخافون»[1]، وحكى كعب الأحبار رضي الله عنه أن هذه الأمة ذُكِرَتْ أوصافهم في التَّوراة ومنها: لهم دويٌّ كدَوِيِّ النَّحل[2].



وقال الدمشقي رحمه الله: «ربما كان المطر وقُرَّاء القرآن من الليل فلا يدرون أي الصوتين أرفع: المطر أو قراءة القرآن»[3]، وهذا من توافق راحة القلب وأنسه بالقرآن مع أنس النفس بالمطر، وإذا حصل التوافق وهو التواطؤ كان أدعى للتدبُّر والفهم.

---

(١) المرشد الوجيز، ص(٢٠٩).

(٢) تاريخ دمشق، (١/ ٨٦).

(٣) موسوعة ابن أبي الدنيا، (١/ ٣١٠).



القرآن والتاريخ الماضي:

لماذا اختار الله لنا بعض قصص الماضين دون غيرها؟

ولكي ندرك المقصود من وراء السؤال دعني أشرح السؤال بشكل أوسع:

إن الذين عاشـــوا علـــى الأرض منذ أن خلقهـــا الله عددٌ لا يحصيهم إلا الله، فكم حصل في تاريخهم ما يوجد فيه عبرةٌ لنا؟ وكم من كلمة تكلموا بها؟ وكم من طاعة فُعلت لله؟ وكم من معصية عُصي الله بها؟ فلم يذكر الله لنا إلا أشـــياء محددةً دون غيرها!

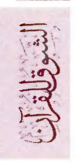


فلماذا اختار الله لنا من الأنبياء الذين لا يعلم عددهم إلا الله إلا هؤلاء المذكورون في القرآن؟!

ومن الذين ناصروا الأنبياء لم يذكر الله لنا إلا مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون؟!

ولماذا اختـــار الله لنا مـــن كلام لقمان هـــذه الجمل دون غيرها؟

وكم من حيوان تكلم مع نبي الله سليمان عليه السلام، فلماذا لم يخبرنا الله إلا بكلام الهديد؟ وكم يوجد حشرة في عهد سليمان تكلمت فلماذا لم يخبرنا الله إلا بخبر النملة؟



كم جملة قالها بنو إسـرائيل لموسى عليه السلام فلماذا لم يخلد إلا بعض تلك الجُمل كقولهم: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ لأن هذه الجملة سـتتكرر بلفظها وبمعناها وقريبًا من لفظها، وقد يكون ذلك من قارئ هذه الآية.

إن ذلك يرجع إلى اسم الله العليم الحكيم، فعلم سبحانه أن هذه الأمة تحتاج من قصص السـابقين هذا القدر، وهذه الجملة، وهذا الخبر، وهذه القصـة، وهذه الحاجة إما لزيـادة عبودية أو معالجة خلل. ففي جانب ذنوب الأمم الماضية خلَّد الله لنا ما علم سـبحانه وهو العليـم أن هذه الأمة سـتُبتلى فيـه دون غيره من الذنوب، فأعطانا الله خبرًا عن ذلك الذنب وعلاجه وسبب انتشاره وآثاره على السـابقين. فجمـع الله لنا في القـرآن أخبار الأولين والآخرين مما نحتاجه دون غيره، فاختصر بذلك العمر علينا.



هذا كله يحملنا على أن نعيد النظر في كل خبر أُخبرنا عنه، لأنه لم يكن مجرد تسلية وإيناس، إنما لأن القارئ لتلك الآية وقع ببعض ما وقعوا فيه، فيقرأ مرضه أمامه وعلاجه، ويقرأ فعل الله بأمثاله من السابقين.

وسأُطرب القارئ الكريم بجملة لابن القيم رحمه الله تفتح لنا آفاقًا في فقه العقوبات، فقد يظن قارئ القرآن أن الله أخبرنا عن

خسفه بقارون وقلبه القرى على قوم لوط، وأن تلك العقوبات انتهت لانتهاء المقصودين بها، إلا أن ابن القيم يرى أن العقوبات إذا نزلت فإنها تمكث في الأرض تبحث عمن يستحقها فتصيبه، لأن الأرض كانت خالية من العقوبات لكن إذا نزلت بقيت، فبمثل خسف قارون خسف الله اليوم بالمتكبر، بأن يُلقى في حفرة، أو يخسف بقلبه وأخلاقه وذريته خسفًا لا يقل درجة عن خسف قارون وداره. وقلَّ مثل ذلك في قوم لوط وأشباههم فلا تزال عقوبة القلب والتنكيس عليهم وعلى أخلاقهم وقلوبهم وعقولهم وفكرهم واهتماماتهم وإراداتهم، والآن اسمع قول ابن القيم: «ولا ريب أن العقوبات التي أنزلها الله في الأرض بقيت آثارها سارية في الأرض تطلب ما يشاكلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الأمم، فهذه الآثار في الأرض من آثار تلك العقوبات، كما أن هذه المعاصي من آثار تلك الجرائم، فتناسبت كلمة الله وحكمه الكوني أولا وآخرا»[1].

والمقصود التركيز في كل لفظ في القرآن لأنه مقصود لك أنت إما في نفسك أو أهلك أو من حولك.

---

(١) الجواب الكافي، ص٦٦.

القرآن والمستقبل القادم:

فصَّل الله المستقبل تفصيلًا، فكما أخبرنا عن أعمق نقطة زمنية في الماضي وهو خلق الله للخلق، حينما كانت السماء دخانًا، فقد أخبرنا أيضًا عن أقصى نقطة في المستقبل وهو دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وما بيننا وبين ذلك، فصَّله وأوضحه وبينه، فأخبرنا عن يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس والدابة، والحشر، وأهوال تجعل الولدان شيبًا.

وأخبرنا عن بعض كلام أهل الجنة وجلساتهم، وبعض حوارات النار وأخبارهم، ومن عجائب ذلك أنه أخبرنا سبحانه حين مشهد مؤثر حينما تتلقَّى الملائكةُ بأهل الإيمان، يعرفونهم بسيماهم، ويرون في وجوههم آثار الخوف، فيدخلون عليهم الطمأنينة قبل رؤيتهم لها، ويبشرونهم قبل ظهور النتائج، ولكي تعرف فضل هذا المشد الذي اختاره الله راجع ذاكرتك يوم أن ذهبت إلى لجنة اختبار، أو راقبت اسمك في لائحة الأسماء الحاصلين على وظيفة، أو المفرج عنهم، فمر بك رجل رأيت في وجهه الخير، فاستقبلك بكلام مطمئن مبشر، وأعطاك رؤوس أقلام عما أمامك، فزال عنك روع الرهبة، وتبدَّلت مشاعرك من شعور رهبة وقلق إلى انتظار إحدى البشارات، فلا تزال تحفظ لذلك الرجل موقفه، أعظم من ذلك فعل



الملائكة، فاسمع ـ كأنك ترى هذا المشهد ـ: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ كم جددت هذه الكلمة الملائكية أعمال قلوب يحتاجها العبد في ذلك الموقف، فلا يزال الرجاء والثقة والطمأنينة حيةً في قلوبهم.

إن حضور المستقبل كاملًا في القرآن الغاية منه حضور الدار الآخرة في القلب، والاستعداد لها، إن الله فصَّل فيها الكلام تفصيلًا لإزالة بذور الشك التي يلقيها الشيطان، ثم يسقيها بماء المعاصي والذنوب.



يكاد القرآن أن يكون كله عن الدار الآخرة، بلفظ مباشر وغير مباشر، وهذا كله يورث عددًا من أعمال القلوب، وأهمها:

١ـ **الزهد الشرعي**: والذي يقوم على ترك كل ما لا ينفع في الآخرة، فكل لذة محرمة يزهد فيها المؤمن لوجود لذة أعظم منها في الآخرة، وكل خوف في الدنيا من غير الله يزهد فيه المؤمن لخوف أعظم منه وهو لقاء الله، ولا يزال الزهد بالعبد المؤمن حتى يجعل حياته كلها لله، فيزهد في كل لحظة لا توصله لله فيبيع حياته كلها لله كما قال الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.



ولأن الزهد بهذا المعنى يصادم عمل الشـيطان، فقد عمل الشيطان حيلة أخرى لإبطاله، فلم يزيله من أصله إنما حرفه عن قصده، وهو الزهد الصوفي المحرَّف المبدل، وأوصل بعضهم إلى الزهد في كثير من الطاعات.

٢ـ الشوق للقاء الله: إن القلب الذي يوقن بأن القرآن كلام الله، وأنـه تكلَّم به على الحقيقة، لن يشـبع منـه، لأن الله هو مقصود المؤمن الأعظم، فإذا وجد شيئًا يختص بمولاه تمسَّك به ولازمه. وهذا القلب سـيرى الآخرة فـي كل آية من آيات القـرآن، ويراها أقرب مـن حبل الوريد، سـيحمله ذلك على الشوق لقراءة كلام الله، ثم شـوق لمناجاته وذكره والقيام بين يديه، وشوق لسـماع النداء للصلاة، وشوق للمؤمنين، وشوق لمحبوبات الله، فتجتمع هذه المشـوِّقات لتوصل صاحبها إلى منزلة الشـوق لله. إن القلب الذي لا يشـتاق لقراءة كلام الله وسماعه وتدبره وذكره لن يشتاق لله ولو ادعى ذلك.



وأعتذر للقـارئ الكريـم لأني أعـدت أو سـأعيد هذا المضمون أكثر من مـرة؛ لأنه المقصود فلابـد أن نصل إليه، فالمقصود بيان حضور الدار الآخرة في القرآن الكريم وأثر ذلك على العبودية، فعلى قارئ القرآن أن يتلمس ذلك في كل آية من آيات القرآن.



القرآن وأسئلة الوجود الكبرى:

لكل عصر أسئلته الكبرى التي تتعلق بوجود الإنسان، ويُبنى على الجواب عليها سلوك الإنسان وتصرفاته وحياته، وفي عصرنا الحالي الأسئلة الوجودية الكبرى هي:

سؤال الخلق: مَن أين أتينا؟

وسؤال المعنى: لماذا نحن موجودون في هذه الحياة؟

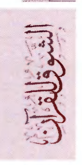
وسؤال المصير: إلى أين نسير؟

إن هذه الأسئلة ليست «مشروعة فحسب، وإنما هي أسئلة ضرورية ملازمة للوجود الإنساني، لأن هذا القلق الوجودي هو ما يميز الإنسان عن بقية المخلوقات من الأساس»[(١)]. فليست الأسئلة إذن خاصة بعصرنا بل هي أسئلة العبودية لكل عصر، وأقصد بالعبودية هنا المعنى العام، فهذه الأسئلة من خصائص العبد، لأنه فقير مخلوق ضعيف، فالأسئلة بحد ذاتها تثبت عبودية الإنسان وأنه لابد له من إله يُعلِّق عليه إجابة أسئلته المحيرة، ولهذا لا تُوجه هذه الأسئلة إلى الله فلا يقال: مَن خلق الله؟ ومن وجد ذلك «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَه»[(٢)].



(١) لماذا نحن هنا، ص٣٦.

(٢) البخاري (٣٢٧٦).



وقبل هذه الأسئلة سؤال آخر: مَن أين نأخذ الجواب؟ وما مصدر العلم بها؟ إن هذه الأسئلة تكشف الفرق بين يقين المؤمن وقلق غيره، هذه الأسئلة تعتبر من الأسئلة العميقة في العصر الحالي، وبعض من يملك زمام التقدم الصناعي قد لا يملك الإجابة عليها، بينما هي تعتبر من الأسئلة البدهية الواضحة عند المسلمين، هذه المفارقة تكشف الفارق بين مصدر المعرفة عند الأمم، فأمة الوحي يملك أطفالها أجوبة الأسئلة التي تعتبر عند غيرهم أسئلة محيرة!، وأطفالها ذكرتها ليس على سبيل المبالغة بل على الحقيقة، فالطفل المسلم يدرس فأول ما يدرس أسئلة الأصول الثلاثة:



من ربك؟ ما دينك؟ مَن نبيك؟

إن أسئلة الوجود والمعنى تُجيب عنها سورة الفاتحة، ويفصِّلها قصار المفصَّل، كما أن هذه الأسئلة انتهت مع أول آيات القرآن نزولًا، فأول ما نزل من القرآن قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ فبينت أصل الإنسان، ووجود ربه، وأن إيجاده له هو مجرد إكرام وفضل، وأجابت عن جهة مسيره بأن إلى ربه الرجعى، وأبرزت العبودية ومكان الانقياد والاستسلام لله، ولم يقطع القرآن إجابة هذه

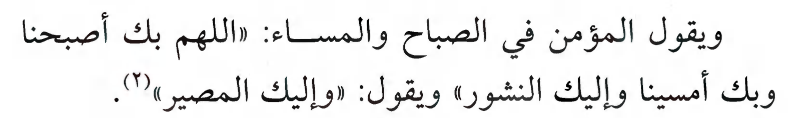


الأسئلة إلى آخر ما نزل منه وهو قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ فقررت مسيره لربه، ولفظ (ترجعون) يدل على أن البداية من الله، وهو سؤال الخلق، وسيحاسب على مافعل وهو سؤال المعنى.

إن القرآن غيَّر وجهة هذه الأسئلة فحولها من أسئلة محيرة إلى أسئلة عبودية يتعبد فيها المؤمن لربه في فقهها واستحضارها وأصبحت العلم بها مقصودًا، لأثرها على سلوكه وحياته.

إن أسئلة الوجود الكبرى نردد جوابها مع أذكار الصباح والمساء، ففي أذكار الصباح والمساء يردد المؤمن: «رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا رسولًا»[1].

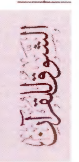




ويقول المؤمن في الصباح والمساء: «اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وإليك النشور» ويقول: «وإليك المصير»[2].

سؤال من أين أتيت؟ يجيب عنها: «بالله ربًا»، و«بك أصبحنا وبك أمسينا»، ومثلها: «باسمك اللهم أموت وأحيا»[3]، ومثلها: «رب كل شيءٍ ومليكه»[4]

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٨٩) وقال: حسن صحيح.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٩١) وقال: حسن صحيح.
(٣) أخرجه البخاري (٦٣٢٤).
(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٩٢) وقال: حسن صحيح.



وقوله: «وإليك النشـــور»، و»إليك المصيـــر»، ومثلها قول المؤمن عند النوم:»اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك»[1] هي جواب: إلى أين نسير؟.

إن أسئلة الوجود يجيب عنها سيد الاستغفار ويجيب على ماهو أصعب منها وما هو أعمق، ولهذا استحق وصف السيادة على الأذكار، وهو قول النبي ﷺ: «اللَّهُـــمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ «[2].

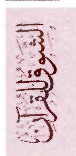


سيد الاستغفار يجيب على كل سؤال يحقق العبودية، وكل سؤال يحير العبيد، وأزعم أن كل شبهة تتعلق بالوجود تتحطم عند ألفاظ سيد الاســتغفار، حتى أن الشيطان لا يطمع أبدًا في إلقائها في قلب المؤمن الموقن بســيد الاســتغفار، الفقيه في مبانيه والعامل بمعانيــه؛ لأن نور هذا الحديث الســيد يحرق الشياطين، إن نور سيد الاســتغفار يطفئ ظلام الجمل التالية: (الله ليس موجودًا)، و (الأديان فكرة سخيفة)، و(الدين للأغبياء)

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٩٩) وقال: حسن.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

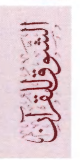


إن أسئلة الوجود والمعنى نردد جوابها في كل ركعة، ففي الفاتحة التي لا تصح صلاتنا إلا بها جواب لأسئلة الوجود وما هو أعمق منها، بل في كل آية جواب بشكل مباشر وغير مباشر على أسئلة الافتقار وهي أسئلة الوجود الكبرى، فقولنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تجيب عن البداية، فنحن مربوبون، ومن العالمين، فكل ماعدا الله هو من العوالم المربوبة، وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ هي جواب على سؤال المصير، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هي جواب لسؤال المعنى، وهي الغاية من الخلق عبودية الله.



لا ننس ونحن نذكر إجابة القرآن على أسئلة الوجود أن نتحدث بنعمة الله علينا أن طهَّر قلوبنا عن القلق والشك والريبة فيها، وعلى وضوحها عندنا، ونعمة وضوح إجابات هذه الأسئلة يغطي عندنا ما يصيبنا في الدنيا من آلام ومتاعب.

إن أسئلة الوجود لا يصلح أن تلقى على المسلم؛ بل يجب أن تؤخذ منه، فقد جرت العادة أن الجبان لا يحق له انتقاد الشجاع لاختلاف مقاييس النقد بينهما، فبعض ما ينقده الجبان يراه الشجاع الميزة التي اختص بها بين الناس، إن مقام المتشكك أمام الموقن أشد من الجبان أمام الشجاع، إن



الشـــكَّاك المرتاب لا يحق له أن يجلس أمـــام المؤمن الموقن بإتيانه ومصيره وماهيته، فيجلس جلسة المتعلم ويأخذ من حيث أخذ.

إن ســـؤال الوجود الأول: من أين أتيـــت؟ لا يمكن لمن لا يثبت وجـــود الله أن يجيـــب عنه، فكيـــف والمؤمن تجاوز الإيمـــان بوجود الله إلى الإيمـــان به وبملائكته وكتبه ورســـله ولقائه، وعرف اسماءه وصفاته، ومحبوباته ومبغوضاته، وآثاره وأفعاله، أرأيتم الفرق بين من لا يعـــرف من أين أتى وبين من عرف ما قبل ذلك وما بعده؟!



إن من يقرأ الفاتحة وأية الكرسي وخواتيم البقرة والمعوذات يملك الإجابة على كل سؤال يتعلق به عمل، ولهذا قال النبي ﷺ عن خواتيم البقرة:» إِنِّي أُوتِيتُهُمَا مِنْ كَنْزٍ مِنْ بَيْتٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَلَـــمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلِـــي«[1]، وقال عليه السلام عن المعـــوذات: »لم يُرَ مثلهن قط«[2]، وأما الفاتحة فهـــي الفاتحة لكل جواب والمغلقة لكل حيرة، وكما أن الله جمع فيهـــا علم الأولين والآخرين فقد أبطل فيها كل شبهات الشيطان التي أضل بها من قبلنا.

---

(١) أخرجه أحمد ٢١٣٤٣.

(٢) أخرجه مسلم ٨١٤.

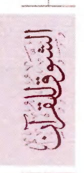


إذا كان بعض ملاحدة العصر الحالي لا يسـعون إلا لسؤال (كيف) تأثرًا بالواقع المادي المعاصر، فإن القرآن وما تفرع عنه مـن أذكار النوم والاسـتيقاظ والركـوب والبسـملة والحوقلة والأدعية وغيرها تتجاوز سؤال (كيف) إلى سؤال (لماذا) و (أين) و (ما هو)، وإذا كانت أسـئلة الوجود تسـأل عـن أصل وجود الإنسـان فالقرآن أجاب عن أصل وجود الكون كله كما قال الله ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١١].



إن كل كلام بعد هذه الآيات فيما يتعلـق بأصل الوجود، وما بُني من نظريات كنظرية أزليـة الكون وأنه لا بداية له التي تبناها الفلاسـفة والملاحـدة قديمًـا وحديثًا يسـميها القرآن (ظلمات) وليست نظريات، وهي خيالات العبد الذي لم يعرف سيده ليدله ويرشده، فحتى خيالات العبد دليل على فقره لسيده واستسلامه وانقياده له.

فالمقصود جواب القرآن عن أسئلة العصر، ولعل متخصصًا أكثر عمقًا بالفكـر يتولى تناول القرآن لتلك الأسـئلة ويقارن بين جواب القرآن وأجوبة النظريات المادية المعاصرة لنستبين سبيل المجرمين.



القرآن يغيب ثم يحضر:

كم قرأنا أية ثم تجاوزناها ولم تفعل فينا فعلها، ثم قرأناها مرة أخرى فكأننا لأول مرة نسمعها، إن كل آيات القرآن فاعلةٌ ولابـدَّ، ومؤثرة على الحقيقـة، وأُنزلت للقلـب، وهي دواؤه وشـفاؤه، فإن لم يحصل هذا التفاعل فالعلة في القلب لا في الآية، فاطلب حياة قلبك بقراءة الآية مرة أخرى، إن من أسرار القرآن أن القلب يحيا عند آية قد قرأها سابقًا ولم يحيا عندها، فكأن القرآن يختار الوقت المناسب لحياة القلب، فهو كالغيب الـذي لا بد أن يوافق وقتًا مناسـبًا لإنبات النبـات، وقد ينزل الغيـب ولا ينبت النبات لأمر يتعلق بـالأرض بعد حكمة الله، والقلب كالأرض وهو مُشبَّه بها.



إن معرفة هذه السـنة القرآنية يجعل القارئ للقرآن يتلمس أوقات حيـاة قلبه لتحيـا بالقرآن، فقد لا يطـول الوقت، وقد لا يسعفه الظرف، وقد لا يتهيأ الأمر، فلا تظن أن قرب القرآن بجوارك، وسهولة قراءته، وتيسر معرفة معانيه سيبقى لك دائمًا! وثد أكثر السلف من التصريح بملل القلب، وإدباره[1]، ووضعوا خطة علاجية لذلك، فإن أدبر القلب عالجوه بأطراف الحكمة

(١) ذكر ابن أبي الدنيا عددًا من الآثار عن علي وابن مسعود رضي الله عنهم ٦/ ٤٨٥.



وشيءٍ من اللهو، وإن أقبل أعطوه حظه من القرآن والسنة. إن كلام السلف في ذلك يجعلنا نعيد علاقتنا مع قلوبنا، فقد وصلت بهم العلاقة والمعرفة أن يعرفوا حال القلب من الإقبال والإدبار، إنهم استطاعوا أن يفصلوا في المعرفة بين القلب والنفس، فقد تنشرح النفس فيتفلتُ القلب عن ورده من القرآن، إن جهلنا بقلوبنا يمتد لدرجة أننا لا نعرف وجه إقبالها وإدبارها، نسأل الله أن يعلمنا ويزيدنا علمًا، إن أدق الفقه أن نفرق بين قلوبنا وأنفسنا، فما يصلح لقلوبنا قد لا تهواه أنفسنا، وما تنشرح له أنفسنا قد لا يناسب قلوبنا، إن قلوبنا لا يصلح لها إلا الوحي وآيات القرآن، وهي تطلب فقهها وفهمها وأن نعيد ونزيد من هذا الدواء الشافي حتى تقبله وتعاف غيره.







القسم السابع

تدبُّر آية خيرٌ من ختمة



قراءة آية بتفكُّر خير من ختمة بغير تدبُّر[1]:

وهذا مما لا يكاد يقتنع به البعضُ لأول وهلة، ظنًّا منهم أن الأجر على قدر الأحرف، وليس الأمر كذلك بل الأجر وصلاح القلب والحـال والدُّنيا والآخرة على فقه الآيـة ومعرفة معناها والعمل بها، وقد كان السَّلف يكرِّرون بعض الآيات ليلة كاملة، كانوا يقرءون القرآن، وفجأة يقع أحدهم على آية فيها شـفاؤه وسـعادته وصلاح قلبه ونزول هدايته، فكأنه ينكشف له غطاء على عيون قلبه، فيبصر بأعينٍ لم يبصر بها من قبلُ، ولهذا تجده يكرِّر هذه الآية كرجل وجـد كنزًا مدفونًا، فأخذ يحفر في نفس المكان، وكلما حفر انهال عليه الذَّهب، بل ما ينفتح على القلب من آثار القرآن ـ إذا وفق الله ـ أغلـى وأعلى من كنوز الذهب، واسـمع ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتكلَّم عن تدبُّر آية واحدة؛ حيث قال: «وَبِالْجُمْلَةِ فَلَا شَـيْء أَنْفَع للقلب من قِرَاءَة الْقُرْآن بالتدبُّر

---

(١) مفتاح دار السعادة، (١/ ٥٥٣).

والتفكُّر؛ فَإِنَّهُ جَامعٌ لجَمِيع منَازِل السَّـائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وَهُوَ الَّذِي يُورث الْمحبَّة والشَّوق وَالْخَوْف والرَّجاء والإنابة والتوكل وَالرِّضَا والتفويض وَالشُّـكْر وَالصَّبْر وَسَائِر الأحوال الَّتِي بهَا حَيَاة الْقلب وكماله، وَكَذَلِكَ يزْجر عَن جَمِيع الصِّفَـات والأفعال المذمومـة وَالَّتِي بهَا فَسَـاد الْقلب وهلاكه، فَلَو علم النَّاس مَا فِي قِرَاءَة الْقُرْآن بالتدبُّر لاشتغلوا بهَا عَن كلِّ مَا سواهَا، فَإِذا قَرَأَهُ بتفكُّرٍ حَتَّى مرَّ بِآيَة وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا فِي شِـفَاء قلبه كرَّرها وَلَو مائَة مرَّة وَلَو لَيْلَة، فقـراءةُ آيَةٍ بتفكُّر وتفهُّم خيرٌ من قِرَاءَة ختمة بِغَيْر تدبُّر وتفهُّم وأنفع للقلب وأدعى إلى حُصُول الإيمان وذوق حلاوة الْقُرْآن»[1].



ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ يقارنُ بين ختمةٍ من الختمات التي نحرص عليها في رمضان، مـع أن هناك العديدَ مـن الآيات لم نفهم معناها، ولم نتفاعل معها، وتختلف قلوبنا أثناء القرآن فتشـرد أذهاننا، ونفكِّر في دنيانا وألسنتنا تقرأ آية في التحذير من الدُّنيا والاغترار بها، إنَّ ختمةً مثل هذه الختمة المتهلهلة ضعيفة الأثر على القلب، وأخطر ما فيهـا أنها تورثنا رضا عـن ذواتنا بأن ختمنا كلام ربنا!!

(١) المصدر السابق، (١/ ١٨٧).



ولو كان مجرد القــراءة مقصود لذاته لمــا مَنَعَ النبيُّ ﷺ عبد الله بــن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن يقرأ القــرآن في أقل من سبعٍ[1]؛ لأنه يســتطيع أن يقرأه قراءة مجردة عن الفهم في أقل من ذلك بكثير، وقال أيضًا ﷺ: «**لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**»[2]، فَاتَّضَــحَ أن النهي عن قراءة القرآن في مدة قليلة إنما هو لأجل عدم فقهه؛ لأن الآيات تحتاج إلى تركيز وترديد وترتيل وتَفَهُّم.

وأختمُ بقول ابن عبَّاس رضي الله عنهما قــال: «لَأَنْ أَقْرَأَ الْبَقَرَةَ فِي لَيلَةٍ وَأَتفكَّر فِيهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ هَذْرَمَةً»[3]، وهذا مِنْ فقهه رضي الله عنه، فإنَّ التفكُّر في سورة واحدة والوقوف مع آياتها أفضلُ وأكثرُ أثرًا على القلب من ختمة خالية عن ذلك.

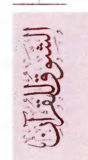




افهم المعنى وتدبَّرْ:

مما ينبغي أن ينتبــه له أن كلَّ قارئ للقــرآن فاهمٌ لمعاني الآيات؛ فإنه يستطيع أن يتدبَّر تدبرًا يتوافق مع علمه، وقد روى أبو عبيد القاســم بن ســلام رحمه الله عَنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ

(١) صحيح البخاري، (٤٧٦٧).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٤٩)، وصحَّحه الألباني في (صحيح ابن ماجة).
(٣) صفة الصفوة، (١/ ٣٧٢).



حَنْطَبٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ فِي مَجْلِسٍ، وَمَعَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِثْقَالُ ذَرَّةٍ؟ قَالَ: «نعَمْ». فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَاسَوْأَتَاهُ. مِرَارًا، ثُمَّ قَامَ وَهُوَ يَقُولُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ دَخَلَ قَلْبَ الْأَعْرَابِيِّ الْإِيمَانُ»[1].

هذا الأثرُ يعطينا تصورًا عن تدبُّر غير المختص، وهو سؤال كثيرًا ما يطرح: هل كل أحد يستطيع أن يتدبر؟ حتى الرجل العامي الذي ليس لديه علم؟!

والجواب: إنَّ كلَّ أحد فهم شيئًا يستطيع أن يتدبَّره، فالتدبُّر مرتبط بالفهم ومعرفة المعنى، ولا شكَّ أنه إذا ازداد علمًا سيزداد تدبرًا، فهذا الأعرابي فَهِمَ قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] أنَّ كلَّ شيءٍ مهما صغر من خير أو شر فلن يضيع، وفهم أن مثقال الذر يدلُّ على الصِّغر، فتفاعل معها وقال: وَاسَوْأَتَاهُ، وكرَّرها مرارًا؛ مما يدلُّ أن شعورًا خالطه أثمر له هذا النَّدم، فندم على التفريط بالخيرات، وتحسَّر على الشرور التي عملها مما هي مثاقيل

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٢٧٨).



ذر.. هذا هو التدبُّر الشَّرعي الذي أثمر عملاً وندمًا وتوبةً يحبُّها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فآية أثمرت توبة وإنابة لله.

ولو كان المتدبر من فضلاء الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لكان التدبُّر أعمق من ذلك، وأثره عليه أعمق وأكثر، وهكذا التدبُّر يزداد مع العلم، فابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مثلاً قال: «لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا تُبَلِّغُنِيهِ الْإِبِلُ أَحْدَثَ عَهْدًا بِالْعَرْضَةِ الْأَخِيرَةِ مِنِّي لَأَتَيْتُهُ، أَوْ لَتَكَلَّفْتُ أَنْ آتِيَهُ»[1]. ومثله أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَوْ أَعْيَتْنِي آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا يَفْتَحُهَا عَلَيَّ إِلَّا رَجُلاً بِبُرْكِ الْغِمَادِ لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ»[2].

ونلاحظ أن ضابط التدبُّر هو العمل، كما أن العمل يزداد مع زيادة العلم؛ فالعِبرة ـ إذن ـ بما يحدثه التفكُّر والتأمُّل في الآية، ويحسن التنبيه إلى أن خبرة الحياة هي أيضًا علمٌ، فإذا قرأ آية وكان لديه خبرة من الحياة تعزز تلك الآية وترسخها، فيتفاعل معها ويزداد إيمانًا.

وكثيرٌ من المسلمين إذا سمعوا آيات الموت والعذاب يعرفون معناها ويتفاعلون معها بدمع العين أو خضوع القلب،

---

(١) المصدر السابق، ص(٢٧٨).

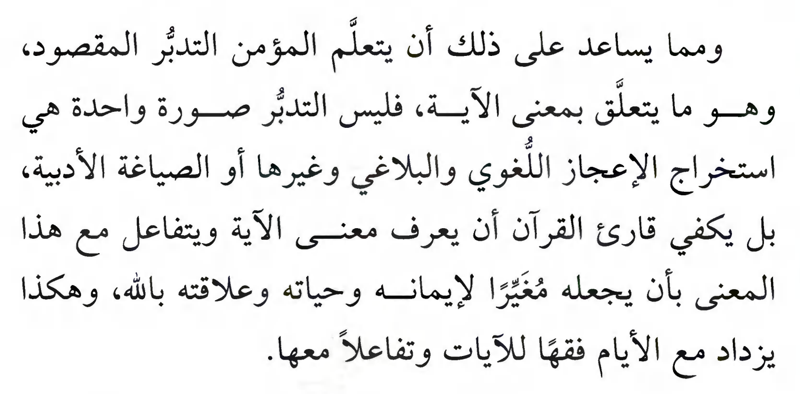
(٢) المصدر السابق، ص(١٠١).



وتجد آثار بعض الآيـات تمتد لعدة أيام يجدها المسـلم من نفسه، مما يدلُّ على أن التدبُّر مقدور للعبد المؤمن على حسب حاله وإيمانــه وخبرته في الحياة، وكم من آيــة فهمها المؤمن فغيَّرت كثيرًا من حياته.

وأما المسـلم الذي يسـتطيع القراءة والكتابة اليوم ويفهم ما يقرأه من كتب وأخبار، فهو قــادرٌ على فهم معاني كثير من الآيات، ويستطيع أن يقرأ كتب التفسير التي تيسرت اليوم ولله الفضل والمنة، فلا عذر لأحد في فقه كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.





ومما يساعد على ذلك أن يتعلَّم المؤمن التدبُّر المقصود، وهــو ما يتعلَّق بمعنى الآيــة، فليس التدبُّر صــورة واحدة هي استخراج الإعجاز اللُّغوي والبلاغي وغيرها أو الصياغة الأدبية، بل يكفي قارئ القرآن أن يعرف معنــى الآية ويتفاعل مع هذا المعنى بأن يجعله مُغَيِّرًا لإيمانــه وحياته وعلاقته بالله، وهكذا يزداد مع الأيام فقهًا للآيات وتفاعلاً معها.

كما أن التدبُّر ليس هو مجرد تفاعل المشـاعر مع الآية دون إحداث أثرٍ في العمل، فهذا أثرٌ مؤقتٌ، بــل إنَّ التدبُّر يمتد أثره إلى واقع حياة قارئ القرآن، ومع الأيام وكثرة قراءة القرآن تجد أن سلوكه تغيَّر: بدأ يحافظ على الصَّلوات حيث يُنادى بهن، وبدأ



يحافظ على السُّـنن الرواتب والنوافل والوتـر، زاد حرصه على الدعاء، صار يأمـر بالخير وينهى عن المنكـر، أصبح لديه غيرة على حرمات الله، يستثقل كل جلسة ليس فيها ذكر الله، وتخلَّص من كلِّ ما لا يرضي الله، يقينه بالله ازداد، ويغني عن ذلك أنه فهم العبودية ودوره في هذه الحيـاة، وأيضًا مراقبته لله زادت، وازداد احتسـابًا لله أكثر من وقتـه السَّـابق، واتضح له معنـى التوكُّل والاعتماد على الله، ومع كثرة قراءتـه وتأمله زاد زهده فيما عدا الله وحضور الله فـي قلبه أصبح واقعًا، ويغني عن كلِّ ما سـبق ضابطٌ هام لظهور أثر تدبُّر القرآن ألا وهو: أصبح أكثر استحضارًا للدَّار الآخرة، وهكذا انتقل تأمله للآيات إلى واقع حياته وإيمانه، وأما المعاني الدقيقة فتحتاج إلى إصغاء واستماع وتدبر[1].

إنَّ مما يساعد على التدبُّر: جلسة التركيز بعيدًا عما فيه تشويش للذهن، وهو ما يُسـمَّى **حضور القلب** مع إلقاء السَّمع؛ لأن قراءة القرآن تحتاج إلى فهم واستيعاب، ومن شأن ذلك المكان الهادئ، نعم قد يصل الأمر بالمسلم إلى أن يقرأ القرآن على كلِّ أحيانه كما هو شأن النبي ﷺ فقد كان يذكر الله في كلِّ أحيانه[2].

---

(١) مجموع الفتاوى، (١١/ ١٤١).

(٢) صحيح مسلم، (٣٧٣).



ومن فوائد الترتيل أنـــه يمد الصَّوت بقراءة الآية مما يعطي فرصة للقلب أن يفهم الآية، ويتأمل بالمقصود منها، وإذا وجد قارئ القرآن تفاعلاً من نفســه وقلبه في آيــة؛ فليغتنم الفرصة وليكرِّرهــا، وليُحسِّــن الصوت عندهــا، ويحاول أن يســتثير مشــاعره، حتى قال النبي ﷺ: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَــوْا**»[1]، وقد كان النبي ﷺ يَمُدُّ صوته بالقراءة حال الترتيل، يُقطِّع قراءته آية آية[2].

ونختم بســؤال عَبْدِ اللهِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما قَالَ: قُلْتُ لِجَدَّتِي أَسْــمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما: كَيْــفَ كَانَ يَصْنَعُ أَصْحَابُ رَسُــولِ اللهِ ﷺ إِذَا قَرَءُوا الْقُرْآنَ؟ قَالَتْ: «كَانُوا كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ تَعَالَى: تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ وَتَقْشَــعِرُّ جُلُودُهُمْ». قُلْتُ: فَإِنَّ نَاسًا هَاهُنَا إِذَا سَــمِعُوا ذَلِكَ تَأْخُذُهُمْ عَلَيْهِ غَشْــيَةٌ، فَقَالَتْ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّــيْطَانِ الرَّجِيمِ»[3]، وهذا يدلُّ علــى أن اتباع الصَّحابة رضي الله عنهم يكون حتى في تعاملهم مع القرآن، وأنهم خيرُ مَن امتثل آيات القرآن، ولهذا لم يُعرف بينهم مَن يُغشــى عليه، ولهذا تعوَّذت أسماء رضي الله عنها من الشَّيطان الرَّجيم.



---

(١) سنن ابن ماجة، (١٣٣٧)، وضعَّفه الألباني.

(٢) صحيح البخاري، (٥٠٤٦).

(٣) أخرجه البيهقي، (١٩٠٠)، وســعيد بن منصور في (السنن)، (٩٥)، وقال محققوه: «إسناده صحيح».

سورة المسد وعظمتها:

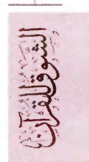
مَن يقرأ سورة المسد ولا يعرف معناها، ولا يتأمل في آياتها وأحكامها، يطرأ على ذهنه أثناء القراءة أنها تكلَّمت عن شخصية رجل اسمه أبو لهب، كفر بالله، وأنه سيصلى النار وهو وامرأته، ولهذا فليس هناك شأن لهذه السورة في حياتنا اليومية، بينما هي سورة عظيمة، ولو لم تُنزل في القرآن لدخل علينا خللٌ في إيماننا على قدر فوات هذه السورة، فلله الحمد على إكماله لنا دينه، وإتمامه علينا نعمته.



وسأقرأها قراءة تدبُّر حتى يحتذى حذوها فيما تيسر من قصار السُّور، فإنَّ هذه السُّور نزلت في فترة حرجة من الإسلام، وأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن تكون إحدى لبنات بنائهم الإيماني، فلا يعقل ـ إذن ـ أن تكون سورة قصة لرجل حدثت وانتهت أحكامها بموته.

وأول ما يبدأ به هو معنى السورة:

خسر أبو لهب وتمت خسارته بما جنته يداه، ولن يغني عنه ماله وما كسبه من أولاد ومنصب وعز وعشيرة، وقريبًا يصلى نارًا تلظَّى، ومعه امرأته التي كانت تحمل الحطب لتؤذي به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخالفت بذلك فطرة النساء في الابتعاد عن



أذية الرجال، وعدم الدخول فيما بينهـم، وخالفت أيضًا عادة بعض نساء قومها اللآتي كنَّ يطلبن من أزواجهن أن يبتعدوا عن محمد وأصحابه، فإنَّ عاقبة الظُّلم وإيذاء الناس وخيمةٌ، ولهذا جوزيت هـذه المرأة بأن لهـا حبلاً في عنقها تُجـر به في نار جهنم[1].

فإذا قرأها المؤمن وتدبَّر معانيها وتدارسها مع نفسه وأهله وأصحابه، وجد أمورًا عظيمة في هذه السورة؛ منها:



١ ـ في السُّورة أسـماء جليلة لله، فأول ما يذهلك اسم الله القاهر القهار القوي المتين وما يشاكلها من الأسماء التي تدلُّ على أن الله فعَّال لما يريد، وأنه إذا حكم حكمًا فلا رادَّ له، فقد قُرئت هذه السورة وأبو لهب يسمعها، ويتلوها الناسُ وهو حيٌّ بينهم، فكان المؤمنون عندهم من اليقين بموته على الكفر، وأن الله عَزَّوَجَلَّ ختم على قلبه بسـبب أفعاله، وأنه لما زاغ عن الهدى بعد إذ جاءه أزاغ الله قلبه، فكلما رآه أهل الإيمان ازدادوا إيمانًا بربهم، وخوفًا من عقابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله إذا أراد شـيئًا هيَّأ له أسبابه وفعله، ولو أراد أبو لهب أن يشكِّك الناس في الإسلام لأسلم ليبطل هذه الآيـات التي تُتلى لكن هيهات، إنَّ الله يسَّـر لأبي

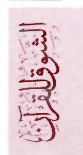
(١) هذا التفسير هو إجمالي ما ذكره المفسرون دون النص على مفسر معين.



لهب وسائل الهداية ومكّنه منها، فهو قد حضر أول اجتماع للنبي ﷺ حين رقى على الصفا في أول إنذار أنذره قومه، وفي ذلك الموقف صدَّ عن سبيل الله، وغيره زادته الأيام فتورًا في الصَّد أو هداية، أما هو فاستكباره وصده عن سبيل الله من أول يوم إلى أن مات على وتيرة واحدة، بل زاد عنادًا وبُعدًا، ولم يراعِ جيرته للنبي ﷺ، فقد كان بيته قريبًا من بيته ﷺ، فلم ينفع معه قرابة رحم، ولا جوار العرب وحميتهم.

٢ ـ أبطلت الآيات نفع ما يكسبه العبد من مال أو جاه أو منصب وعشيرة، فكلها لا تغني من الله شيئًا، فما أغنى عن هذا السيد المطاع في قومه ما يملكه من وسائل قد انفتن بها كثيرٌ من النَّاس في زماننا، وعليها تعتمد مشاريع الإلحاد والتي ما هي إلا تضخيم للماديات وإلغاء للغيب.

٣ ـ في السُّورة كرم الله على الكافرين، فقد أمدهم بالكسب من مال وولد وعشيرة، وهي وسائل كان المفروض أن تعينهم للوصول إلى الله بطريق أسرع من غيرهم، وتحصيل درجات هي أرفع من غيرهم، لكن أبو لهب وأمثاله استعملها في غير ما وُضعت له، فكان ظالمًا لها ولنفسه، ولا زال أمثال أبي لهب ينعمون بما تَنَعَّم به أبو لهب وتشابهت أفعالهم.



٤ ـ وفي السورة إثبات البعث والجزاء وخروج الناس من قبورهم، وذكر النار التي هي آخر مشاهد يوم القيامة، فمَن آمن بها آمن وصدَّق بما قبلها من البعث والمرور على الصراط والصحف وغيرها، فما أعظم هذا الأثر على حياة المؤمن أن تحضر الآخرة في قلبه وأمام عينيه، فلا تسأل بعد قراءته لها عن أثر الآخرة على سلوكه وأفعاله.

٥ ـ في السُّورة ترهيب من النَّار ولهبها وإحراقها للأجساد، وأنها نارٌ حقيقية لها لهب يشتعل، موكل بأهلها، يعرفهم بأعمالهم، فيصاب القارئ للسورة برهبة ووجل من ذكر هذه النار، حتى أصحاب الفضيلة أئمة المساجد حينما يقرءون هذه السورة تحس أن الغنة في قوله الله تعالى: ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣] لها مخرج قلبي خاص.



٦ ـ وفيها تحذير للنساء عن اتباع سبيل هذه المرأة التي خرجت عن طبيعتها، وأقحمت نفسها الدخول في شئون الرجال، ونزعت منها الرحمة حتى على زوجها، هذا إنْ لم يكن هي لها حقٌّ له، ولأبي لهب طاعةٌ لها، وكمْ من شريف منصب تتحكم به امرأة مخذولة تسلَّط عليها الشَّيطان. وفي ذكر الحطب تأكيد على أنها استعملت ما يكون من خصائص النساء وشئونهن من الاحتطاب، استعملت ذلك في عداوتها

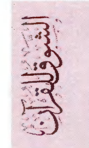


للنبي ﷺ، ووضعها الشوك في طريقه ﷺ يناسب ضعف المرأة، وقلة حيلتها، فليس من شأنها أخبث من ذلك وأدنى، والشوك الذي تضعه يناسب الشوك الموجود في قلبها عن النبي ﷺ ودعوته وكلامه، ولو أن الشوك زال عن قلبها لأزالته من طريق النبي ﷺ، فكلُّ امرأة قرأت سورة المسد لها شعور إيماني حينما تمر على الآية الخاصة بذكر زوجة أبي لهب، فالنساء أعرف بالنساء.

٦ ـ وفي السُّورة مثال للأسرة السيئة التي يتعاون فيها الزوج مع زوجته على ما لا يرضي الله سبحانه وتعالى، ولعل الحديث بين أبي لهب وزوجته كان عن النبي ﷺ ودعوته وحربه، فتعاونا على الإثم والعدوان.



٧ ـ وفي السُّورة تأكيد لقاعدة الجزاء من جنس العمل، فأبو لهب كان في عمل دءوب للصَّد عن سبيل الله فجازاه الله بالخسارة، وامرأته تضع الشوك فرحةً بأذيته ﷺ، فأهانها الله سبحانه وتعالى بحبل الذُّل في العنق، العنق الذي هو موضع جمال المرأة، ويهمها ذكره وشأنه، فكان موضع جمالها موضع خزيها، وما هو شعور النساء في ذلك الزمن وهن يسمعن هذه الآيات تتلى في حقِّ امرأة يعرفنها؟! وما شعورهن وهن يرين عنقها إذا جلسن معها؟! لقد عاشت في خزي كما كان قلبها فيه خزي.



۞ ومن الأعمال القلبية المرتبطة بالسُّورة:

ـ **الخوف**: فالسُّورة تزرع الخوف من الله ﷻ، فإنه إذا حكم حكمًا فلا يُرد، ومَن طرده الله ﷻ؛ فمَن ذا الذي يؤويه؟!

ـ **التعلُّق بالله وحده**: فما بين يدي المؤمن من أسباب كسب من مال وولد وعشيرة ومنصب ومال ما هي إلا وسائل يستعين بها في تعبُّده لله، وإلا فهي لا تنفع من دون الله، فيرجع كل شيءٍ لحجمه الطبيعي في قلب المؤمن، فلا الأسباب تفتنه، ولا فواتها يعطله.



ـ **المحاسبة**: السُّورة تورث محاسبة العبد لنفسه وأسرته وزوجته وحاله وماله؛ لئلا تزيده خسارة عند الله، وتبيِّن للمؤمن كيف أن الله أخزى من أخزى دينه.

ـ **المحبة للنبي ﷺ**: السُّورة تزيد محبة المؤمن للنبي ﷺ، إذ رأى المؤمن كيف أن الله يدافع عن نبيِّه ﷺ؟ ويحميه ويغضب له، وينتصر ممن آذاه، ويتهدَّده ويتوعده، فلا يملك بعد ذلك إلا محبة مَن يحبه الله سبحانه وتعالى.

فالسُّورة على قصرها فيها إثبات لأركان الإيمان، وذكر لصفات الله وأفعاله كصفة القوة والقهر والعلم والعظمة والحكمة وغيرها، وفيها تهديد ووعيد، وفيها إثبات الجزاء في



الدُّنيا قبل الآخرة، وفيها ذكر للغيب الذي صدَّق به المؤمنون، وفيها فرح للمؤمن وتحزين للصَّادِّ عن سـبيل الله؛ فما أعظمها من سورة!!

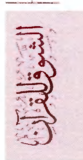
فكيف إذا تنبَّه قارئ السُّورة لصفة اللهب التي ذكرت، وهي وإنْ كانت صفة للون بشـرته إلا أنها عذابه، فهناك تناسب بين لونه ولون النار، فله من النار لونها، وصفاتها؟!

وتنبَّه الفقهاء لذكر الزوجية في السُّـورة فأخذوا منه حكمًا فقهيًا يتعلَّق بصحة عقود الكافرين الزوجية، وأنها لا تتجدَّد بعد إسلامهم؛ لأن الله سمَّاها امرأته.



فإنْ كان قارئ السُّـورة لديه علم بالبلاغة وفقه اللُّغة وركَّز على كلمة (التبّ)، والشَّدة في كلمة (حمَّالة)، والسين الدالة على قُرب الموعود في كلمة (سيصلى)، وسيعرف فائدة ذكر الصَّلي دون ذكر دخول النار، والتعظيم الموجود في التنوين على كلمة (نارًا)، وسر ذكر الجِيد دون سائر الأعضاء، وهكذا كلما تضلَّع المؤمن من العلوم استخدمها في تدبُّر كلام سيده، فيحصل على ما لا يحصل عليه غيره، وهذا فضل الله يؤتيه الله مَن يشاء.

هذه السُّـورة لو لم تكن في المصحف لانتقص من حياتنا على قدر حاجتنـا لها، فلم ينزلُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حرفًـا إلا ولنا حاجة



ضرورية له، ولو انتقص من القرآن حرفٌ لانتقص من انتفاعنا على قدر ذلك الحرف.

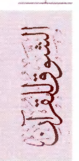
أردتُ من هذا المثال أن أُبيِّن أن السُّور القصيرة فيها شفاؤنا وعلاجنا وزيادة إيماننا ما لو انشغلنا فيها برهة من الدَّهر لكنَّا أهل ربح وفوز، ولعل هذا أحد أسرار مشروعية قصار السُّور في أغلب الصَّلوات، حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أُنْزِلَ الْمُفَصَّلُ بِمَكَّةَ، فَمَكَثْنَا حِجَجًا نَقْرَؤُهُ، لَا يَنْزِلُ غَيْرُهُ»(١)، أي: مكثوا سنين يقرءونه لا يخلطون معه غيره، مما يدلُّ على ضرورته في بناء العقيدة الإسلامية.



حلقة تفسير:

أليس من الخلل أن ننتهي من حفظ القرآن ولا نعرف تفسيره ومعانيه؟! أليس من عدم التوازن أن ينهي الطالبُ القرآنَ ويبدأ في القراءات ولا زال غريب القرآن غريبًا عنده؟! أليس من أولويات سُلم العلم الشَّرعي أن يُبدأ بمعاني القرآن؟! هل يُحسُّ المتخصص بأحد العلوم الشَّرعية بتأنيب ضمير وهو

(١) سنن سعيد بن منصور، (١٢٦)، وقال المحقق: «سنده ضعيف»، وأخرجه الحاكم، (٢/ ٢٢٤)، وقال: «هذا الحديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.



يُدقِّق بمسائل فنه بينما يفوته معاني الكثير من آيات القرآن؟! كيف كان الصَّحابة والسَّلف يتعلَّمون القرآن ومعانيه؟!

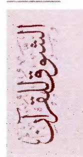
مما يساعد على تقريب الفجوة التي بيننا وبين فهم القرآن أن تكون هناك حلقٌ لتفسير القرآن تتوافق مع تحفيظ القرآن الكريم، فمَن يحفظ شيئًا من القرآن عند حلقة التحفيظ يتعلَّم في الوقت نفسه تفسير الآيات تفسيرًا إجماليًّا عند حلقة التفسير، فيسير الفهم مع الحفظ فيزداد رسوخًا.

إنَّ منهج الصَّحابة رضي الله عنهم منهج العشر آيات كما حكاه أبي عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه قال: «حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ»(١)، وهذا المعنى متواتر عن الصَّحابة والتابعين رضي الله عنهم.



والعشر آيات هي متوسط حفظ الطالب اليوم تقريبًا، فلو قرأها الحافظ ثم شُرح له المعنى في حلقة التفسير، وتعلَّم

(١) أخرجه عبد الرزاق في (المصنف) (٣٠٥٤٩)، وابن سعد في (الطبقات)، (٦/ ١٧٢)، وسنده صحيح، وأخرجه الطبري (١/ ٣٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا عليه وسنده صحيح.



ما فيها من أسماء الله وصفاته وأفعاله، وما فيها من أوامر ونواهٍ لاجتمع للطالب الحافظ القرآن والعلم به.

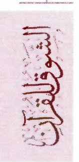
وكان منهج آخر للصحابة ﵃ يخبرنا عمر بن الخطاب ﵁ عن الطريقة التي كان جبريل ﵇ يُعلِّم بها نبيَّنا ﷺ، فقد روى ابن عبد الرزاق في مصنفه عن عمر ﵁ قوله: «تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ خَمْسَ آيَاتٍ خَمْسَ آيَاتٍ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَأْخُذُهُ خَمْسًا خَمْسًا»[1]، وكان هذا هو الغالب.



وقد امتثل عمر ﵁ فتعلَّم سورة البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورًا، ولا شكَّ أن عمر ﵁ قادرٌ على الحفظ والتعلُّم بأقل من ذلك إلا أنه كان يتعلَّمها متمهلاً متأملاً متدبرًا.

وفي ترجمة الإمام أحمد ﵀ أنه أتم ضبط حفظ القرآن بعدما جاوز عمره الخمسين سنة، حيث قال: «كنتُ أحفظ القرآن، فلما طلبت الحديثَ اشتغلتُ فسألت الله ﷿ أَن يمنَّ عليَّ بحفظه ولم أقل: في عافية، فما حفظته إلا في السجن

(١) مصنف عبد الرزاق، (٣٠٥٥٠)، وقال ابن كثير في (فضائل القرآن)، ص(٢٢٧): «سنده جيد».



والقيود»[1]، وقبل ذلك كان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشتغلًا بفقه القرآن والعمل به.

ومن أخذ السَّبع الطِّوال؛ فقد أخذ الخير كما جاء عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الطُّوَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَهُوَ خَيْرٌ**»[2]، وكلمة (خير) نكرة تفيد العموم، وفي السَّبع الطِّوال أصول الإسلام والدِّين.

ولا تظن أنهم يقرءون القرآن ويعطِّلون حياتهم اليومية؛ فقد قال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «إذا رجع أحدكم من سوقه؛ فلينشر المصحف فليقرأ»[3]، وهذا هو التوازن بين أداء الواجب العيني من طلب الرزق مع الواجب العبادي.



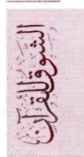
ومع توفر كتب التفسير اليوم المبسوطة والمختصرة أصبح شأن حلقة التفسير ميسورًا ولله الحمد، إنَّ حفظ القرآن مع معرفة معانيه تأخذ بيد صاحب القرآن حتى تغرس فيه شجرة الإيمان، ثم لا تزال الآيات المحفوظة تسقي تلك الشجرة يوميًّا حتى تنمو وتزكو.

---

(١) مناقب الإمام أحمد، ص(٣٩).

(٢) أخرجه الحاكم، (٥٨٥٥)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وحسَّنه الألباني في (صحيح الجامع)، (٥/ ٢٣٢).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١٠٥).



ومن تأمَّل السُّنة وجدها تَحثُّ على حلق التفسير وتأمر بها، فقول النبي ﷺ: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ**»(١). فنلاحظ أنه ذكر التلاوة والتدارس وهو التفسير ومعرفة المعنى وتثوير الآيات، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إِذَا أَرَدْتُمُ الْعِلْمَ فَأَثِيرُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّ فِيهِ خَبَرَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ»(٢).

وكذلك حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ، فَقَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟**»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: «**أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ، أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ** عز وجل**، خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ**»(٣).



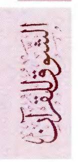
واللطيف في الحديث أنه ربط تعلُّم الآية والآيتين بالمسجد لبركته ولأن هذا من رفعه المقصود في قوله تعالى:

---

(١) صحيح مسلم، (٢٦٩٩).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٩٦)، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد): «رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح».

(٣) صحيح مسلم، (٨٠٣).



﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ ﴾ [النور: ٣٦]، وقد كان ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا اجتمع إليه إخوانه نشروا المصحف فقرءوا وفسَّر لهم(١)، وأخرج سعيد بن منصور رَحِمَهُ اللهُ في سننه عن عمير بن ربيعة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «رأيت أبا الدرداء يُدَرِّس القرآن في جماعة من أصحابه»(٢).

وفي حلقة التفسير ينبغي للمفسر أن يركِّز على قضيتين:

أحدهما: أسماء الله وصفاته وأفعاله.

والأخرى: عِلم المُنعم، كما أسماها الآجري رَحِمَهُ اللهُ فقال وهو يتكلَّم عن بعض أمراض الزمان: «لا يَرْغَبُ فِي مَعْرِفَةِ عِلْمِ النِّعَمِ، وَلا فِي عِلْمِ شُكْرِ الْمُنْعِمِ»(٣)، ويقصد بعلم النِّعم استخراج نعمة الله والتعريف بها من خلال كتاب الله، وصدق رَحِمَهُ اللهُ؛ فإنَّ معرفة النِّعم علمٌ ينبغي معرفته وطلبه. فإنَّ هاتين القضيتين تثمران تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومحبته، وهما أساس أعمال القلوب والجوارح.

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(١٠٥).

(٢) سنن سعيد بن منصور، (١٦٣)، وقال المحقق (٢/ ٤٨٥): «سنده ضعيف؛ لجهالة حال محمد بن يزيد وعمير بن ربيعة، ولأن إسماعيل بن عياش لم يصرح بالسماع هنا وهو مدلس».

(٣) أخلاق حملة القرآن، ص(٣٢).



بقي أن أختم بكلام للشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبيِّن أن أكثر معاني القرآن واضحة للعامة والخاصة من العرب, وضرب لذلك أمثلة فقال: «تدبَّر القرآن واقرأه بتدبُّر وتعقُّل، ورغبة في العمل والفائدة، لا تقرأه بقلب غافل، اقرأه بقلب حاضر بتفهُّم وبتعقُّل، واسألْ عما أشكل عليك، اسأل أهل العلم عما أشكل عليك مع أن أكثره بحمد الله واضح للعامة والخاصة ممن يعرف اللُّغة العربية مثل قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، وقوله سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فكُلُّها آياتٌ واضحاتٌ بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها ما حرَّم على عباده وما أحل لهم وما أمرهم به، وما نهاهم عنه»(١).

(١) مجموع فتاوى ابن باز، (٩/ ٢٥).



فهذا القدر مــن الآيات الواضحة المفتــرض ألا يتجاوزه الطالب الحافظ إلا وقد عرفه وجاهد نفســه علــى العمل به، فيجتمع له العلم والعمل.

ومن توفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للشَّاب أن يتعلَّم معاني القرآن في بداية عمره وإقباله على الطلب؛ فإنَّ القرآن يخالط ذهنه وقلبه ولحمه ويسري في عروقه، كما هو حال زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولهذا تمَّ اختياره في لجنة كتابة المصحف.

وجاء في هذا المعنى أثر كعب الأحبار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه مكتوبٌ في التوراة: أن الفتى إذا تعلَّم القرآن وهو حديث السِّــن، وحرص عليه، وعمل به، وتابعه، خلطه الله بلحمه ودمه»[1]، ويشــهد له قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ**»[2]، والمهارة أقرب للشَّاب الذي تعلَّم القرآن بداية عمره.



نماذج من المقامات العالية في قراءة القرآن:

قيل لرجل قليل النَّوم: ألا تنام؟ فقــال: إنَّ عجائب القرآن أذهبت نومي[3]، ولا تعجب من ذلك؛ فــإنَّ النفس إذا تعلَّقت

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٤٧).

(٢) متفق عليه: البخاري، (٤٦٥٣)، ومسلم، (٧٩٨).

(٣) الزهد للإمام أحمد، ص(٤٤٠).



بشيء أزال ذكرُهُ نومَها كما هو مشاهد في الواقع، فمَن انشغل ذهنه بسفر أو تجارة أو معاملة طَارَ عنه النَّومُ.

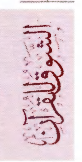
ولهذا سأجمع بعض ما وقفت عليه من قصص المقامات العالية في تعاملهم مع القرآن، وخلطت معها شيئًا من قصص المعاصرين، ومن ذلك:

❁ كانت هناك عادة عند السَّلف وهي قراءة القرآن في البيوت لدرجة ظهور الأصوات خارج البيوت، وأعجب ما قيل في ظهور أصوات القُرَّاء ما ذكره الفقيه ابن الفقيه، عبد الرحمن بن عبد الله بن ذكوان عن أبيه أبي الزناد رضي الله عنهم قال: «كنت أخرج من السَّحر إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا أمر ببيت إلا وفيه قارئ».

وقال أيضًا رحمه الله: «كنا ونحن فتيان نريد أن نخرج لحاجة فنقول: موعدكم قيام القُرَّاء»[1]، وهذا يدلُّ على أن قراءة القرآن في البيوت كانت ظاهرة اجتماعية، ولهذا قلَّت الغفلة في بيوتهم، وعلى هذا نشأت أسرهم وبيوتهم.

❁ وجاء في (فضائل القرآن) لأبي عبيد أن عثمان بن عفان وتميم الداري وابن سيرين رضي الله عنهم قرءوا القرآن كلَّه في

(١) موسوعة ابن أبي الدنيا، (١/ ٣١٠).



ركعة[1]، وكان علقمة يقرأ القرآن في خمسٍ، والأسود في ستٍ، وعبد الرحمن بن يزيد في سبعٍ[2]، وأبو رجاء العطاردي يختم كلَّ عشر ليالٍ[3]، وهذا دليلٌ على أن القرآن أُلين في ألسنتهم كثيرًا، وقد مضى بيان ذلك في تضاعيف الكتاب.

❁ وكان قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ يختم القرآن في سبعٍ، وإذا جاء رمضان ختم في كلِّ ثلاثٍ، فإذا جاء العشر ختم كلَّ ليلةٍ[4]، وبمثل ذلك تستغل مواسم الخيرات، وأنبِّه إلى أن استغلال مواسم الخيرات لا يكون إلا على قدر العبادة قبلها، فمَن عَبَد أُعين كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإعانة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جاءت بعد تعبُّد العبد له، ومَن أقبل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شبرًا أقبل الله إليه ذراعًا.



وحُفظ عن أبي حنيفة الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ أنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة[5]، وحريٌّ بمثل هذا التوافق أن يكون من رحمة الله بأبي حنيفة الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ.

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص(٨٠).
(٢) تاريخ بغداد، (٤١/ ١٨٠).
(٣) طبقات القراء السبعة، ص(٣١).
(٤) سير أعلام النبلاء، (٥/ ٢٧٦).
(٥) تاريخ بغداد، (١٣/ ٣٥٤).



❁ ومن قصص أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ التي تناسب موضوع القرآن أن مسعر بن كدام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: «دخلت ذات ليلة المسجد فرأيت رجلاً يصلي فاستحليت قراءته، فقرأ سُبعًا فقلت: يركع، ثم قرأ الثلث، ثم قرأ النصف، فلم يزل يقرأ القرآن حتى ختمه كله في ركعة، فنظرت فإذا أبي حنيفة»[1]، وهذا سلوك المؤمن حينما تنشط نفسه للعبادة، وللنفس إقبال وإدبار، فإذا أقبلت فليأخذ منها نصيبًا وافرًا، وإذا أدبرت فليقتصر على الواجب.

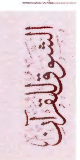
❁ وأبو بكر بن عياش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقرأ القرآن حتى حال مرضه، فيقول: «ما أتت عليَّ ليلة في مرض إلا وأنا أقرأ فيها القرآن»[2]، والقرآن شفاءٌ لأمراض البدن كما هو شفاءٌ لأمراض القلب، ومن بُعدنا عن القرآن أننا نمرض فلا نرقي أنفسنا بالفاتحة التي سُمِّيت الشَّافية.

❁ وابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يخبر عن أبي منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو من كبار الصَّالحين الزَّاهدين المتعبدين، كان له وِردٌ بين العشاءين، يقرأ فيه سبعًا من القرآن قائمًا وقاعدًا، حتى طعن في

---

(١) المصدر السابق، (١٣/ ٣٥٦).

(٢) المصدر السابق، (١٤/ ٣٨٣).



السِّــن(١)، وهذا تطبيــقٌ لقــول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٨]، فالنهار لأشغال العبد، والليل يتركه المؤمن لعبادته الخاصة.

❁ ومن أعجب مَــن صَبَرَ فــي تعليم القــرآن وتحفيظه أبو علي أحمد بــن أحمد بن أبي الحســن بن دويرة البصري المقرئ الزاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، شيخ الحنابلة بالبصرة، ختمَ عليه القرآن أزيد من ألف إنســان(٢)، فمعلمُ تحفيظ القرآن أبعد النَّاس عن العجز والكســل، ولا يزال القرآن يمدُّه بالنشاط والقوة، ونِعْم العمل جلوسه لتعليم القرآن.

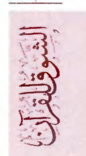
❁ ومثلــه: إلياس بْــن عَلــوان الْمُقْــرِئ، رُكــن الدِّين الإربليّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، تصدَّر للإقراء بجامع دمشق، ولقَّن خلْقًا، ويقال: ختم عليه أربعــة آلاف نفس وأكثــر، كذا قَالَ شــمسُ الدِّين مُحَمَّدُ بْــنُ إِبْرَاهِيــم الْجَــزَرِيُّ، وذكــر أنَّه قرأ عليــه القرآن، فمثله رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصنع بالقرآن أرواحًا مضيئة تنير للمسلمين حياتها.

❁ وأبو منصور الخيــاط المقرئ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كَانَ لَــهُ وِرد بين العشاءين، يقرأ فيه سبعًا من القرآن قائمًا وقاعدًا، حتَّى طعن في

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة، ص(٣٩).

(٢) شذرات الذهب، (٥/ ٢٥٨).



السِّن(١)، والاستمرار على ذلك مع تتابع الأيام والسنين هو من توفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمن يشاء من عباده.

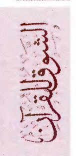
❁ وآدم ابن أبي إياس الخرساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان مقرئًا للقرآن، وحضرته الوفاة وهو في أحد الختمات(٢)، وهذا مما يخفِّف هول المصرع، فالجزاء من جنس العمل، ومَن مات على شيءٍ بُعث عليه، فيقوم الناس من قبورهم مفزوعين، بينما هذا وأمثاله ينفض التراب ثم يقرأ القرآن، وهذا فضل الله يؤتيه الله مَن يشاء.

❁ وفي السَّفر يستغلون الوقت لقراءة القرآن، فهذا صالح بن كيسان المدني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يُحدث عنه يعقوب بن عبد الرحمن عن أبيه قال: «خرجت مع صالح بن كيسان إلى الحج، فربما ختم القرآن في ليلة بين شعبتي رحله»(٣)، وهذا من البر والتقوى الذي يسأله المسافرُ في دعاء السَّفر أول ما يخرج من بلده.



❁ ومن باب إرجاع الأمور لنصابها، فقد كان مالك بن دينار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من أحفظ النَّاس للقرآن، وكان يقرأ كلَّ يوم جزءًا من

(١) تاريخ الإسلام، (١٠/ ٨١٦).
(٢) إكمال تهذيب الكمال، (٢/ ٢٩).
(٣) المصدر السابق، (٦/ ٣٤٢).



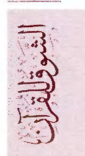
القرآن حتى يختم، فإنْ أسقط حرفًا قال: «بذنب مني وما الله بظلام للعبيد»[1]، فالطَّاعات تقوي الذَّاكرة، والذُّنوب تُسبِّب النسيان، إذًا النسيان من الشَّيطان، وعلاج الذُّنوب الاستغفار، وأخطر الذُّنوب ما كان فيه إصرار، وعلاجه دوام الاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله عزوجل.

❁ ومن عجائب القرآن أنه يضيء البيوت التي يُقرأ فيها، فيراها أهل السَّماء كما نرى النجوم في السَّماء، كما قاله عبد الرحمن بن سابط رضي الله عنه: «إنَّ البيوت التي يقرأ فيها القرآن لتضيء لأهل السَّماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض»[2]، وكما أن النجوم تختلف في شدة إضاءتها فكذلك البيوت تختلف بناءً على كثرة ما يُقرأ فيها من القرآن.



❁ ومن أعجب ما جاء في منامات القُرَّاء، والرُّؤيا جزء من أجزاء النبوة، ما جاء عن مجاعة بن الزبير رضي الله عنه قال: «دخلت على حمزة بن حبيب الزيات القارئ المعروف فوجدته يبكي، فقلت: ما يبكيك؟! فقال: ألا أبكي، وقد رأيت ربي ـ تبارك وتعالى ـ الليلة في منامي، كأني عرضت على الله ـ تبارك وتعالى

(١) غاية النهاية في طبقات القراء، (٢/ ٣٦).
(٢) طبقات القُرَّاء السُّبعة، ص(٤٣).



ـ فقال لي: يا حمزة، اقرأ القرآن كما علمتك، فوثبت قائمًا، فقال لي: يا حمزة، اجلس فإني أحب أهل القرآن، ثم قال لي: اقرأ، ثم دعا بسوارٍ فسورني، فقال ﷻ: هذا بقراءتك القرآن، ثم دعا بمنطقة فمنطقني، فقال ﷻ: هذا بصومك النهار، ثم دعا بتاجٍ فتوَّجني، ثم قال ﷻ: هذا بإقرائك النَّاس القرآن، يا حمزة: لا تدع تنزيلاً، فإني نزلته تنزيلاً؛ أفتلومني أن أبكي؟!»[1].

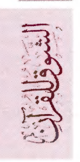
❁ وبرنامج حمزة صاحب هذه الرؤيا أنه كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يختم في كلِّ شهر خمسًا وعشرين ختمة، وكان إذا فرغ من إقراء القرآن صلى أربع ركعات، وكان يصلي بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وكان لا ينام الليل كلَّه، وكان جيرانه يسمعونه يرتل القرآن ترتيلاً[2].



❁ وصف سفيان الثوري شيخه عمرو بن قيس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: «هو الذي أدَّبني، علَّمني قراءة القرآن والفرائض، وكنتُ أطلبه في سوقه، فإنْ لم أجده، ففي بيته، إما يصلي، أو يقرأ في المصحف، كأنه يبادر أمرًا يفوته»[3]، والعجيب في الترجمة

---

(١) المصدر السابق، ص(١٦٨).
(٢) المصدر السابق، ص(١٦٩).
(٣) سير أعلام النبلاء، (٦/ ٢٥٠).



قوله: (كأنه يطلب أمرًا يفوته) أي: أنه لا يضيِّع لحظة من وقته كأن أمامه أمرٌ قد يفوت، فهو يبادر لئلا يفوت، وذهابه للسُّوق مع بيته ومصحفه وصلاته هو التوازن بحيث لا يطغى أمرٌ على أمر، وهذا الميزان الذي أنزله الله مع الكتاب.

ولا تزال هذه الأمة مباركة، وفي المتأخرين منها مَن يُجدِّد الله به سِـــير المتقدمين، فمِن قصص المعاصرين في كتاب شذا الياسمين[1]:

❁ إبراهيم السياري كان كثير تلاوة القرآن، يقول بعض من سافر معه: لقد قام ليلة بأربعة عشر جزءًا من القرآن.

❁ إبراهيم السويد كان يختم القرآن كل ثلاثة أيام، ويقرؤه في كل أحواله ماشيًا وقاعدًا وأثناء عمله.

❁ إرشـــاد الهندي: والذي عمل مدرسًـــا في المســـجد الحـــرام، كان كثير التـــلاوة للقرآن فكان حزبه اليومي عشـــرة أجزاء، فيختـــم في كل ثلاثة أيام، بالإضافـــة إلى مداومته على سماع ثلاثة أجزاء من المصحف المرتل للشيخ الحصري.

❁ جار الله بن مقبـــل العنزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ والذي توفي ١٤٣٤هـ كان يختم القـــرآن تلاوة من المصحف كل يـــوم، وعلى مدى

---

(١) شذا الياسمين في أخبار المعاصرين، عبد الله العنزي ١/ ٣٦.



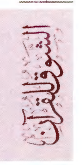
سـنوات، وقد تمزق بين يديه عدة مصاحـف، وأخبر عنه من يعرفه بأنه منذ ٢٣ سـنة كان يختم يوميًا، ويقول: قد يأتيني من يشغلني لكني لا أنام حتى أختم.

❁ حميد بن محمد القليطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقـول ابنه وَجْدي كان ينام الساعة العاشرة ليلًا ويسـتيقظ الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل، يقوم ويقرأ القرآن إلى الساعة الثالثة والنصف، ثم يذهب إلى المسـجد ويكمل قراءة القرآن إلى إقامة صلاة الفجر، ثم يجلس في المسجد ويكمل قراءة القرآن إلى طلوع الشمس.



❁ سـعود بن غنيم الحربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ والذي توفي ١٤٣٨هـ كان يقرأ القرآن بعد صلاة الفجر حتى شـروق الشـمس، ثم يذهب للبيت للإفطار ثم يقرأ ما بين الساعة إلى ساعتين، وبعد الغداء يقرأ في غرفته ما تيسر له من القرآن، ثم يقرأ بعد العصر إلى قبل المغرب بنصف ساعة، ثم يتناول القهوة، ثم يقرأ بعد العشاء في غرفته ما تيسر له.

❁ سعيد بن حسـن الغامدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ والذي توفي ١٤٣٦هـ فقد أخبر عنه الأستاذ سـعيد بن جيلان الغامدي: حدثني عن نفسـه فقال: إنه رُزق حبَّ القرآن وتلاوته آنـاء الليل وأطراف



النهار، وبعد تقاعده كان يختم كل شـــهر ٤٧ مرة، ويبدأ قيامه لليل الســـاعة الواحدة والنصف ليلًا ويصلي حتى يصبح صيفًا وشتاءً.

❁ سهيل بن مشـــروع العتيبي كان يختم القرآن كل ثلاثة أيام، وبعدما كبر ومرض وأرهقه مرض السكر أصبح يختم كل سبعة أيام، وفي آخر عمره عندما ذهبوا به للمستشفى دخل في غيبوبة أخذ يقرأ القرآن فتعجَّب الأطباء منه.

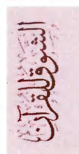
❁ ثنيان بـــن طريخم الغرمـــول البقمي يحـــدِّث عنه ابنه مناحي فيقول: كان كثير القراءة للقرآن، ويختم كل أســـبوع في يوم الاثنين، وسألته عن ذلك فقال: حتى أمرَّ بسورة الكهف يوم الجمعة.



❁ عبد الرحمن بـــن عبد الله الخضيـــري يحدث عنه من يعرفه بأنه كان مشـــغولًا بالتلاوة ويختم فـــي كل ثلاث، وفي رمضان كل يوم له ختمة، ويسمع لتلاوته حشرجة في الصدر.

❁ عبد الله بن حســـن عمران كان يراجع كل يوم خمسة أجزاء بعد صلاة الفجر، فكان يختم القرآن كل ستة أيام.

❁ عيادة بن سالم الشمري يخبر عنه ابنه محمد بأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان كثير قراءة القرآن، وكان شاعرًا فترك الشعر للتفرغ للقرآن،



وعند موته كان يقرأ سـورة البقرة وهو يحتضر، فلما انتهى من أية الكرسي تشهد فنام على جنبه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وفي كتاب شذا الياسمين من أخبار المعاصرين فيه قصص عجائب.

ومما وقفتُ عليه من القصص:

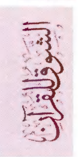
❁ أني قابلتُ رجـلاً دخل حلقة التحفيـظ وعمرُهُ اثنان وسبعون سنة، وختم القرآن وعمره خمسةٌ وسبعون سنة، وكان مصحفه لا ينزل من يده، وقال لي: أنا ولدتُ يوم دخلت حلقة تحفيظ القرآن.



❁ وأخبرني أحد مشـايخي بأنـه قرأ القـرآن كاملاً يوم الجمعة بعد صلاة الفجر، وختم عند دخول الخطيب للخطبة.

❁ وقـال أحـد المقرئيـن المعاصرين: ما نظـرتُ في المصحف منذ أربعين سنة، لشدة إتقانه وضبطه، مع العلم أنه يراجع محفوظه بالقراءات العشر كلها».

❁ ويذكر بعض المقربين عن الشيخ هاني السنوسي ـ أحد المقرئين المصريين ـ أنه لم يمسك المصحف منذ عشرين سنة، وكل مراجعته من محفوظه.



❁ ويُذكر عن الشَّيخ محمد جويدة المصري أنه كان يقرأ القرآن قائمًا وقاعدًا وعلى جنب، ولا يمنعه عن القرآن إلا دخول الخلاء، وكانوا يسمُّونه محمد القُرْأنجي، لكثرة قراءته للقرآن، ويحدِّثون عنه أنه إذا وقف لشراء الخبز عند المخبز استغل وقته في قراءة القرآن غيبًا، ويستمر بالقراءة إلى حين رجوعه، وكان لا يتحدَّث مع أحد، إنما كان مشغولاً بالقراءة والمراجعة.

❁ وحدَّثني أحد المشايخ عن الشَّيخ كمال عبد القادر المصري كان يراجع في اليوم عشرة أجزاء مع كِبر سِنه ومرضه، وقد تعب في أحد الأيام تعبًا شديدًا، فكان يُغمى عليه، ولا يمنعه عن القرآن إلا الإغماء، فإذا أفاق قرأ وأكمل محفوظه، حتى مات وهو يقرأ القرآن رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



❁ ومن علو الهمة في التعليم؛ فهناك شابٌّ أُصيب بشلل رُباعي بسبب حادث مروري، فلا يتحرَّك منه إلا رأسه، فتفرَّغ لحفظ القرآن وتعليمه، فكان يُعلِّم القرآن في بيته، ثم توسع بعد دخول النت في تعليم القرآن، ولديه الآن أكاديمية لتحفيظ القرآن المعروفة بروح وريحان، وأخذ يفتح دُور تحفيظ نسائية في القُرى المجاورة لقريته فنفع الله به، وخرَّج عشرات الحفاظ.





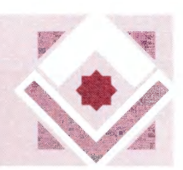
❁ وكذلك الشَّيخ عصام تَمَّام وهو موظف حكومي ومع هذا لديه أكثر من أربعمائــة طالب، وكان يبدأ التحفيظ من بعد الفجر إلى السَّاعة السَّابعة، فيذهب للعمل الوظيفي، فيعود بعد الظهر للتحفيظ إلى السَّــاعة الحادية عشــرة ليــلاً، وهذا من الأعاجيب في الصَّبر والمصابرة.

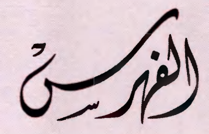
❁ وحدَّثني أحدُ الفضلاء عن ابن أختــه ختم القرآن في الصَّف الثاني الابتدائي.

❁ وأخبرني صديقٌ لي بأن أحد جماعة مسجده من كبار السِّــن العاكفين على القرآن كان به ثــلاث ختمات، ختمةٌ في المســجد، وختمة أخرى فــي البيت، وختمة ثالثــة في محله التجاري، وكان بعــد كلِّ صلاة يقرأ مائة وعشــرين وجهًا من القرآن.









المقدمة ١٣

القسم الأول: أزمة التعامل مع القرآن ١٣

لدينا أزمة ١٣

أزمة أيضًا في معاني الأذكار الشرعية ٢٤

أثر الحياة المادية على قراءتنا للقرآن ٢٨

القسم الثاني: قوة القرآن ٣١

قوة القرآن ٣١

القرآن سببٌ لحفظ الكون كلِّه ٤١

القسم الثالث: الفرح بالقرآن ٤٥

الفرح بالقرآن ٤٥

ما معنى أن القرآن عزيز؟ ٤٩

القرآن خاتم الرسالات والكتب ٥٣

القرآن مأدبة ٥٥
القرآن وُحْدَة قياس ٥٩
القرآن هُدى وشفاءٌ ٦١
القرآنُ يَهُزُّ ٦٧
القرآن عمران البيوت ٧٦
القرآن يصحِّح التصورات ٧٨

القسم الرابع: القرآن وحملته ٨٨
مَنْ هُم أهل القرآن وحملته؟ ٨٨
أصحاب القرآن ٩١
الشَّيطان يحرص على عدم تكرار الخطأ ٩٣
الشيطان يحضر عند قراءة القرآن ٩٧
القرآن يعيد علاقتنا بالملائكة ١٠١
الفجوة بين القرآن والعمل به ١٠٨

القسم الخامس: الفجوة بين العلم بالقرآن والعمل به ١٠٨
هل قراءة القرآن لتحصيل الحسنات فقط؟ ١١٥
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يغضب لكلامه ١١٧





هل يمكن أن ينفك معرفة معنى القرآن عن قراءته؟ ١٢٠

التوازن بين الاهتمام بالحروف مع الاهتمام بالمعاني ١٢٣

القرآن بلا معنى كالجسد بلا روح ١٢٦

لماذا سورة يوسف؟ ١٢٩

فما سر تفاعل الناس مع سورة يوسف؟ ١٣١

التفاعل مع قراءة القرآن ١٣٢

هل حفظُ القرآن هو العمل به؟ ١٣٧

القسم السادس: عتبات الشَّوق للقرآن ١٤٦

أول عتبات الشَّوق للقرآن تعظيم الله ١٤٦

تحقيق الإيمان قبل قراءة القرآن ١٥١

اختلاف مشاعر القلب مقصود للقرآن ١٥٩

تَغنُّوا بالقُرآنِ وتَقَنَّوه ١٦١

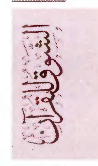
عددُ دَرَجِ الجنةِ ١٦٣

حضور اليوم الآخر في القرآن كلِّه ١٦٤

التفنُّن في قراءةِ الورِدِ ١٦٨

فخامة الختمة ١٧١





القرآن والتاريخ الماضي ١٧٨

القرآن والمستقبل القادم.. ١٨١

القرآن وأسئلة الوجود الكبرى ١٨٤

القرآن يغيب ثم يحضر.. ١٩١

القسم السابع: تدبُّر آية خيرٌ من ختمة ١٩٣

قراءة آية بتفكُّر خير من ختمة بغير تدبُّر.. ١٩٣

افهم المعنى وتدبَّرْ ١٩٥

سورة المسد وعظمتها ٢٠١

ومن الأعمال القلبية المرتبطة بالسُّورة.. ٢٠٦

حلقة تفسير ٢٠٨

نماذج من المقامات العالية في قراءة القرآن.. ٢١٥



